روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



ليالي السهاد

Insomnia



Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا





في
الظلام
In The Dark

الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

ليالي السهاد

روايـــة

د. نجيب الكيلانى



الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠٢٣٥/٢٠١٢

الترقيم الدولي:
978-977-255-370-9

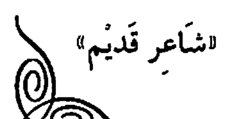


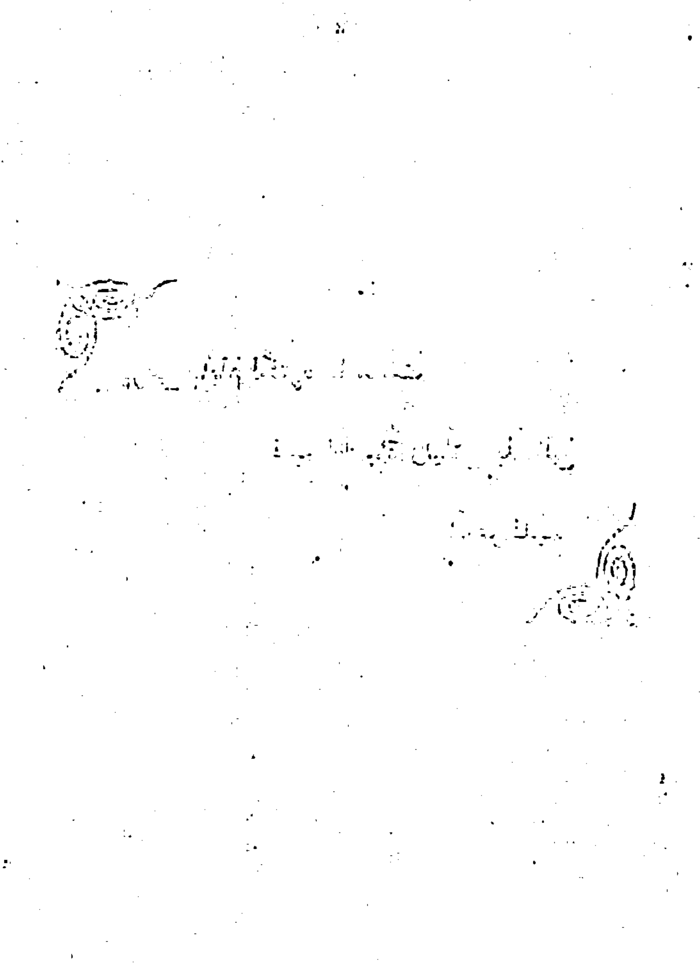
للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب- السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

يَومى بأيامٍ لكثرةِ مَا مَشَتْ

فيـهِ الحَـياةُ وَلَيْلَتى بِليَـالى

«شَاعِر قَدْيم»







ضاقت بى السبل، وأشعر أنى أكاد أختنق، كل شىء حولى يبعث فى نفسى الضيق والأسى، المدينة تحتدم بالضوضاء، والحركة، ولا يكاد أحد يلتفت إلى آخر، لكلٍ عالمه الخاص، هذا يضحك وحده، وذاك يمضى مكفهر الوجه، وثالث يتلكأ فى مشيته، والبعض يهرولون دون أن يلووا على شىء. . كدت أقف فى شارع «فؤاد» وأنا أصرخ بأعلى صوتى:

- «أنا مظلوم . . مظلوم يا ناس. . يسقط الظلم».

وابتسمت فى مرارة، هذا بداية الجنون، لو فعلت ذلك لجرى الناس من حولى فى رعب، ولأطبق علىّ رجال الأمن من كل جانب، وفى هذه المرة لن أفلت من بين أنياب الوحوش، فستكون الإدانة مكتملة الأركان والحيثيات. . مجرد أحلام تافهة، فأنا أضعف من أن أرفع رأسى وأتحدى. . آه. . عندما علم مدير الشركة أننى معتقل لشبهة سياسية، أصدر على الفور قراره بالفصل، وبقيت زوجتى وابنتى بدون عائل. . وحينما ذهبت بدرية إليه، قال لها فى ارتباك وحزم:

- «لا مكان فى شركتى لمن يتحدى الحكومة . . ولا أريد أن يكون لى أدنى علاقة بسلطات الأمن . . لأول مرة فى حياتى أخضع للاستجواب فى وزارة الداخلية . . اذهبوا بعيدًا عنى . . انتهت المقابلة . . » .

تضرعت زوجتى قائلة :

- «أنت تعرف عبد القادر زوجى . . والمعتقلون يصرفون مرتباتهم فى كل وزارة . . وفى كل شركة . . » .

- «أنا قطاع خاص يا ابنتى» .

- «أترضى أن نتشرد؟؟ إنه لم يرتكب جرمًا . . وسيفرج عنه قريبًا جدًا . . » .

شحب وجه الرجل ، وتلفت يمنة ويسرة ، ثم غادر مكتبه واقترب منها وقال فى انفعال :

- «المسئولون طلبوا ذلك . . » .

- «قالوا لك : اقطع عيشه؟؟» .

- «لولا أن زوجك كان رجلاً مجتهدًا مخلصًا لما كشفت عن السر . . » .

دمعت عيناها ، وخرجت تتعثر . . بحثت فى درج المكتب عن أوراقها ، أمسكت بشاهدة دبلوم التجارة ، كانت تعرف أننى لا

أوافق على خروجها للعمل، وتؤمن مثلى بأن تربية الأبناء، ورسالة المرأة فى بيتها أكبر عائداً وأثراً من الوظيفة. . لكن ما الحيلة، وليس هناك مصدر رزق لها؟؟ وذهبت إلى إدارة القوى العاملة، أفهموها أنها قد فقدت فرصتها حينما لم تتسلم العمل فى الموعد الذى حددوه لها منذ عامين، وأخذت تنتقل من شارع إلى شارع. . ومن مكتب إلى مكتب، حتى كلّت قدماها، وأخيراً عثرت على وظيفة بسيطة فى مكتب للآلة الكاتبة، ولم يتجاوز أجرها الخمسة عشر جنيهًا تدفع منها سبعة إيجاراً للشقة التى تعيش بها فى «شبرا»، والباقى للطعام والشراب والكهرباء والكساء والمواصلات فى الترام. . وحينما خرجت من سجنى وجدتها قد ازدادت نحافة وشحوبًا. . لكن عينيها الجميلتين ما زالتا تشرقان بالفرحة والحب والأمل، أخذتها بين ذراعى لأطفئ حرمان عام كامل، ظلك الظليل يا بدرية يعيد إلىّ الرى والحنان، ويمسح أحزان الليالى الطويلة، وجوع نفسى الجريحة المحرومة. . وأخذ جسدها ينتفض وهى تبكى بحرقة. . قلت لها وأنا أربت على كتفيها:

- «لماذا تبكين؟؟ لقد عدت أخيراً. . ».

يا للكارثة!! إننى أبكى أنا الآخر. . وصوتى يفصح عن مشاعرى ودموعى، واستيقظت الصغيرة «هدى» بنت العامين، وأخذت تبكى وتصيح هى الأخرى.

- «لمَ هذا البكاء يا أحبائى؟؟ يجب أن نسعد ونضحك لقد التأم الشمل من جديد . . وذهبت الآلام إلى غير رجعة . . ».

قالت بدرية وهى تجفف دموعها :

- «سأظل خائفة طول عمرى . . ».

جريت إلى الصغيرة أحملها وأحاول مداعبتها ، وأخرجت لها قطعة من الشيكولاتة ، لكنها دفعتنى فى عصبية ، واستنجدت بأمها فى لهفة والخوف يتبدى فى عينيها الغارقتين فى الدموع . .

قالت بدرية :

- «هذا بابا يا حبيبتى . . ».

لا جدوى ، تشبثت بأمها ، شعرت زوجتى بالخجل وهمست فى مجاملة :

- «لا بأس . . سوف تعرفك وتحبك . . لقد كانت تفعل ذلك كل صباح ، عندما أتركها عند الجيران وأنا ذاهبة إلى العمل . . ».

لم يكن من اليسير أن أجد عملاً فى وقت قصير ، فالعمل الحكومى يحتاج إلى إجراءات ومستندات ووقت وموافقة جهات الأمن ، والشركات تعلن عن الوظائف وتفصلها على أشخاص بعينهم ، كما يحدث عادة فى القطاع العام ، والمؤسسات الخاصة لا تعطى الفرصة إلا لمن تعرفه وتضمنه . . وأنا كمهندس معمارى يمكننى أن أخطط لمشروع ناجح ، لكن أين المال؟؟

وبقيت شهرًا أطرق الأبواب، وأعرض كفاءتى، وأحاول أن أخفى مسألة الشبهة السياسية التى تطاردنى كاللعنة الأزلية، قلت لنفسى فى المعتقل: هذا ابتلاء من الله، واليوم أقول: ما زال الابتلاء مستمرًا، ويجب أن أصمد فى هذه المحنة، فلا بد أن يأتى الفرج . . لقد تعودت الصبر والرضى بقضاء الله وقدره . .

قالت زوجتى وهى ترمق معاناتى العاتية بطرف خفى:

- ﴿ . . أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

- « . . ماذا تعنين؟؟؟».

- « . . نسافر . . ».

- « . . إلى أين؟؟؟».

- « . . أى بلد . . ».

أخرجتنى كلماتها من حيرتى، لقد تفتح قلبى لرأيها، غمرتنى فرحة غامرة، إن كل شىء من حولنا يبعث على الشك والحيرة والخوف، ولن ننعم بالاستقرار والأمان فى جو كهذا، ولم أعد أرى أملاً فى التغيير أو التحسن . . ولم أضيع وقتًا فقد خرجت على التو وأخذت أسأل عن عنوان صديق لى يعمل فى الإمارات العربية . . ولم يمر يومان حتى أرسلت إليه خطابًا أفصح فيه عن رغبتى فى العمل بالخارج . . وأخذت أنتظر . . وطال انتظارى . .

كنت أشعر بالألم العميق، وأنا أرى زوجتى تخرج كل صباح

وتترك لى الطفلة، ولكن كيف أعترض على عملها وأنا لم أجد بابًا للرزق بعد؟ وجدتنى مرغمًا على الرضوخ للأمر الواقع، واستطعت بعد جهد جهيد أن أكتسب ثقة «هدى»، وآخذها معى إلى الشارع وأشترى لها بعض الحلوى واللعب. . لشدما فرحت بذلك. . خُيِّل إلىّ أننى قد حققت نصرًا عظيمًا. . إن وحيدتى تشغل من فكرى وروحى حيزًا كبيرًا. . وكلما نظرت إلى وجهها أيقنت أن الفرح قريب. . وابتساماتها البريئة الحلوة تجلو عن نفسى صدءها، وتنسينى مرارة الأيام السوداء فى منفى الأحرار والمظلومين، وممارسات الشياطين من العسكر ورجال الأمن الغلاظ. . هناك وجوه أنظر إليها فأتعلم الحب وأشعر بالسعادة. . بدرية. . وهدى. . وهناك وجوه أقرأ على صفحاتها سطور البغض والكراهية والشقاء. . الجاويش «الجوهرى». . يجب أن أنسى وأبدأ من جديد، لقد ذهبت الأيام التعسة بكل ما فيها من عذاب. . ولا يصح أن أسجن نفسى فى ظلماتها، بعد أن تحررت وانتقلت إلى عالم بدرية وهدى.

طال انتظارى، واشتد توترى، فمشكلة العمل تلح على ليل نهار، والنجدة لم تأت من الخارج بعد، وأنا أكرر: «لا بد من البحث عن مخرج. .»، وتذكرت كلمات قالها زميل معتقل ذات يوم:

- «لم تعد البلد بلدنا. . أصبحنا كالمنبوذين. . إن قصتنا تشبه إلى حد كبير قصة الفلاحين الذين كان الأشراف والإقطاعيون

يطردونهم من أرضهم ويستولون عليها، وليس أمامهم إلا أن يتحولوا إلى عبيد، أو يخرجوا إلى أرض بعيدة. . بعيدة جدًا. . ».

ويومها ثرت فى وجهه، وأخذت أحدثه عن حب الوطن، وأروى ما قاله فيه الشعراء المبدعون، والأدباء البارزون، والزعماء المخلصون، فكان يرد علي فى استهتار:

- «إنهم لم يضربوا على رؤوسهم بالنعال، ولم يحاربوا فى أرزاقهم، ولم تطاردهم عيون المخبرين فى كل مكان. . ».

إن أمورًا كثيرة تهتز فى داخلى، وأنا ما زلت أقاوم ضعفى وغضبى. . الأقارب كانوا يخافون من زيارة زوجتى، ولم يفكر أحد فى تقديم العون لها، وأحد رجال المباحث أوعز إلى زوجتى بأن تطلب الطلاق منى أثناء اعتقالى، وأفهمها أننى قد لا أخرج أبدًا، وأنى سأظل مهددًا طول حياتى، ووعدها بوظيفة محترمة إذا هى فعلت ذلك، بل حاول النذل مغازلتها، لعله يستطيع أن يصل إلى شىء فيهدم كبرياءها، ويلوث شرفها. . لكنها. . وهى عزلاء- كانت أقوى من المكر والدهاء والإغراء، كيف يصل الظلم إلى هذا الحد من الدناءة والخسة والنذالة؟؟ لشد ما أرقتنى هذه الواقعة، يا ليت زوجتى لم تخبرنى بها، إن مجرد تذكر ذلك يملأ نفسى بالحنق والكراهية الّتى لا مثيل لها، لدرجة أننى فكرت أن أبحث عن هذا المخبر وأقتله؟؟ القضية ليست مجرد خلاف فى الرأى السياسى إذن، ولكنها أبشع من ذلك، إنها قيم من نوع شاذ

غريب، لا تحترم إنسانية ولا توقر مبدأ أو مثلاً أعلى، آه.. مجرد نوبات من الحمى تشعل رأسى وجسدى، وسرعان ما أهدأ وأسترخى حينما أنظر إلى وجهيهما الحبيبين.. بدرية وهدى هما حسنة الزمان الذى قد غمرته سيئات العصاة..

قلت لبدرية وقد نامت هدى:

- «.. لطالما حلمت بك فى كهف الظلمات..».

قالت وهى ترمقنى بنظرات تسيل رقة وعذوبة:

- «.. كنت معى دائمًا.. لم تفارقنى، وهل أستطيع العيش بدونك؟».

- «.. كنت أعزى نفسى بالأحلام..».

- «.. لولاها لمتنا كمدًا..».

- «.. ترى ماذا يخبئ لنا المستقبل يا بدرية..».

- «.. لم أعد أشعر بالاطمئنان هنا.. المدينة مثل مستشفى المجانين..».

- «.. يبدو أننا على أبواب حرب..».

- «وهل نستطيع؟؟».

- «إسرائيل هى التى تقرر يا حبيبتى، والجنون السائد قد يستدرجنا إلى حماقة..».

تنهدت بدرية، وقالت:

- «أين الرخاء الذى أتى به السد العالى؟؟».

- «لا أعرف... كنا نأكل العدس والفول فى المعتقل مثلما كان يحدث منذ عشرات السنين..».

- «لم نكن نجد ما نأكله فى بعض الأيام..».

- «من الأفضل أن ننسى يا حبيبتى..».

قالت وهى تلتصق بى تحت الغطاء، وقد ارتجفت قليلاً من شدة البرد:

- «بدأت أشعر بأعراض الحمل..».

هيمن علىّ فرح طارئ وهتفت:

- «إننى أؤمن بأن هدى يجب ألا تلعب وحدها..».

●●●

وصلت الرسالة التى طال انتظارى لها، كنت أقرأ سطورها وقلبى يرقص من السعادة، تخيلت نفسى محلقًا فى الجو، والطائرة تشق بى الآفاق صوب الجنوب الشرقى، مجرد التفكير فى ذلك ملأنى بالنشوة العارمة، إننى أتحرر، أولد من جديد.. الرقابة تخنق أنفاسى.. وقد يضحك منى من يسمعنى أؤكد بأنها تسبب لى عسر الهضم والإمساك، تلك هى الحقيقة، وهناك فى الأرض البعيدة

سأنام دون أرق، وأعمل دون كلل، وأمشى دون رقيب، وأتنفس بارتياح، وأخلص من عسر الهضم والصداع والخوف من الغد . . هناك يمكننى أن أنظم حياتى دون تداخلات من مفاجات دون غدر . . وأخذت أقرأ الرسالة مرات ومرات . . وأخذت أقبلها وأضعها على صدرى فى شوق . . زوجتى لم تحضر بعد من عملها، ترى هل آخذ هدى وأذهب إليها فى مقر عملها، وأحمل إليها نبأ الرسالة السعيدة؟ بضعة حروف على الورق قد أحدثت بى انقلابًا أخطر من أى انقلاب عسكرى فى العالم . . أخذت أروح وأجىء داخل المسكن، وابنتى تلعب بسيارة صغيرة متفسخة، وأنا أفكر فى موضوع تذاكر السفر، وتصريح العمل، والأوراق المطلوبة . . وأخذت أنظر إلى عقد العمل المرفق باحترام بالغ، إنه وثيقة التحرير الكبرى . . لم أفكر كثيرًا فى المرتب الذى يوازى ستة أمثال مرتب زملائى فى الحكومة، كنت أفكر فى الانعتاق من أسر الذل والحاجة والقيود . . اختطفت هدى وأخذت أقبلها بحرارة وهى ذاهلة ومستسلمة، كنت أقول لها : سوف تنعمين بكل رائع وجميل يا حبيبتى . . وستعيشين فى جو بعيد عن الهوان والحرمان . . ستمتلكين كل شىء يا أميرتى . . والأهم من ذلك كله، إنه لن يفرق أحد بينى وبينك . . سأقبل جبينك الطاهر فى الوقت الذى أريد، وسألمس شعرك الناعم المرسل متى شئت، وتتعلمين فى أحسن مدرسة، وتلبسين أفخر الثياب وتركبين سيارة بابا . .

وصحوت من أحلامى على جرس الباب . . لم يكن جرسًا مخيفًا مثلما كان يحدث دائمًا طوال عمرى الشقى . . لكن كان كالموسيقى الحلوة المرحة . . وتلقفت زوجتى بين ذراعى حينما فتحت لها الباب ، وأخذت أغمر وجهها بالقبلات الحارة ، وأنا أهتف :

- «جاء الفرج . . » .

أخذت تقرأ الأوراق فى اهتمام . . وهى واقفة ، ما أروعك يا زوجتى الغالية الطيبة ! ! لقد رفعت عينين دامعتين إلى السماء ، وهتفت :

- «لك الحمد يا رب . . » .

ثم التفتت إلىّ قائلة :

- «فلنصل ركعتين شكراً لله . . » .

ولم نجد أدنى صعوبة فى تدبير ثمن تذاكر السفر ، إذ رأت زوجتى أن نبيع جزءاً من أثاث الشقة ، وقطعة ذهبية فى يدها ، والاستغاضة عن البوتاجاز بوابور جاز رخيص ، ولا بأس من أن تبيع المعطف الصوفى الوحيد الذى تتقى به البرد ، وكل شىء يمكن تعويضه فى المستقبل . . فالقاعدة الأساسية هى أن نتغلب على أية عقبة تحول دون السفر مهما كانت صعوبة تلك العقبة . . وأخذنا نعد العدة لا ستخراج جوازات السفر . . .

●●●



ذهبت إلى مبنى «المجمع» بميدان التحرير، واندست وسط الجموع التى لا تحصى، ومن مكتب لمكتب كنت أهرول، أريد أن أنهى الإجراءات بأسرع ما يمكن، ملأت الاستمارات، والعديد من النماذج الأخرى، وحصلت كذلك على إثبات بأنى غير مطلوب من التجنيد كنت قد تقدمت بطلبه منذ ما يقرب من شهر ونصف، وشهادة إدارية وشهادة ميلاد، وتجديد البطاقة العائلية، وإقرار بأنى لا أعمل فى أية جهة حكومية أو قطاع عام، وصور فوتوغرافية.. أوراق كثيرة ومتنوعة ثم:

- «عد بعد يومين».

ولم أضيع اليومين هباء، فقد استطعنا بيع غرفة الطعام، وقدراً من الأدوات المطبخية، وساعة حائط أثرية، والقليل من التى تملكها «بدرية»، وأمكننى أخيراً تدبير ثمن تذاكر السفر، وذهبت إلى المجمع.. قال لى المسئول:

- «انتظر هناك . . » .

وأشار بيده إلى أريكة خشبية متآكلة، وجلست فى الانتظار وقلبى يخفق، لحظات وأتسلم جواز السفر، كان يجلس إلى جوارى رجل أسمر اللون يضع على عينيه نظارة شمسية سوداء، مال نحوى فى هدوء وحذر، وهمس:

- «قوائم؟؟» .

صحت فى دهشة:

- «ماذا تعنى؟؟» .

- «أشيوعى أنت أم من الإخوان المسلمين أم فئات أخرى؟؟» .

نظرت إليه فى شك، رجحت أنه مخبر من المباحث العامة، يا إلهى!! إنهم ورائى دائمًا لسوف أترك لهم البلد بأسرها وأرحل إلى غير رجعة . . نعم إلى غير رجعة . . علمتنى الأحداث أن أكون رقيقًا مهذبًا مع هذا الصنف من الناس وإلا تحولوا فى لحظة إلى شياطين مردة يفسدون على كل شىء . .

قلت له:

- «سيادتك من المباحث؟؟» .

ابتسم فى أسى، وقال:

- «أنا مثلك أنتظر جواز السفر منذ شهر . . » .

كاد قلبى يسقط من الفزع، وهتفت:

- «شهر؟ لماذا؟؟».

- «لأنى قوائم.. وأظنك مثلى.. فلا يجلس هنا إلا أمثالنا من المغضوب عليهم..».

أمسكت بيده فى عصبية:

- «أوضح..».

تنهد فى أسى، وقال:

- «المشبوهون السياسيون كلهم فى القائمة السوداء، وأصحاب هذه القائمة ممنوعون من السفر...».

دارت بى الأرض، واسود كل شىء أمامى، تبخرت أحلامى الحلوة، سجناء فى المعتقل، وسجناء فى بيوتنا، وسجناء فى وطننا الكبير.. وتبللت عيناى بالدموع:

- «مستحيل أن ينهار كل شىء.. السفر هو أملى الأخير، وضياع الفرصة يعنى ضياعى.. لقد اعتقلت مع الإخوان لمدة عام.. وأنا بريء..».

قال جارى فى سخرية:

- «أنا مثلك.. أين كنت؟؟».

- «فى معتقل «أبو زعبل» . . » .

- «أما أنا فقد كنت نزيلاً فى مزرعة «طرة» . . الشيوعيون أفضل حالاً منا بكثير . . إنهم يسافررن الآن، ويتسلمون أعلى المناصب، وخاصة بعد أن زار خروشوف مصر، وتم بناء السد العالى . . الشيوعيون لهم من يحميهم . . دولة كبرى . . أما نحن . . فلنا الله . . » .

طال انتظارنا، وأفهمنى الضابط بأدب أن أوراقى فى المباحث العامة للتحرى، وأنها لم ترد حتى الآن، وعلى أن أراجع بعد أسبوع لعل وعسى . . ومضيت كالتائه فى زحام الخلق بشوارع المدينة المقهورة، كانت ترن فى أذنى كلمة الأخ الجالس إلى جوارى على الأريكة الخشبية : «ابحث لك عن واسطة . . ضابط كبير مثلاً . . أو شخصية بارزة . . أو واحد من رجال الثورة المرموقين . . »، واستبد بى ضيق مضاعف . . هل أهرب عبر الحدود؟؟ لكن كيف؟؟ ليس لى أدنى خبرة بالبحث عن الواسطات والتوصيات، وليس فى أسرتنا أحد يعول عليه، مات أبى وأنا فى البكالوريوس وقبله ودعت أمى الحياة وأنا فى الثانوية العامة . . أسرة من الفلاحين، ليس فيها شخصية ذات حيثية . . وتزوجت من بدرية ابنة الأرمل الخياطة التى كنت أسكن فى حجرة لديها، وهم فقراء مثلنا، وبعت الفدان الوحيد الذى ورثته عن أبى، وهكذا تزوجت ودفعت خلو الشقة . . وأصبحنا وجهًا لوجه مع الحياة بكل

متاعبها ومفاجآتها . . والآن جاء دور القائمة السوداء . . أنا الذى نلت جائزة «الطالب المثالى» فى الكلية، وتخرجت بتفوق، أوضع فى القائمة السوداء . . كان من حقى أن أكون معيدًا فى الكلية، لكن تقرير جهات الأمن عنى أفسد كل شىء، وأخذوا الطالب الذى يلينى فى الترتيب، حجبوا عنى بظلمهم أعظم الفرص، وها هم اليوم يحرموننى من فرصتى الأخيرة فى السفر . . ماذا أفعل؟؟ هل الذين تمردوا وثاروا على الحكومة كانوا على حق؟؟ لقد بقيت طوال حياتى، أرفض العنف، وأحتكم إلى العقل والرزانة، لكن أعين عملاء المباحث والمخابرات أفسدوا كل شىء . .

عندما وصلت إلى مسكنى كنت فى حالة من الإرهاق النفسى والبدنى لا مثيل لها، بدت الشقة معتمة مقبضة وكأن ليس فيها نسمة هواء، أو شعاع من نور . .

قالت زوجتى فى لهفة :

– «إنهم يستدعونك للمباحث العامة فى السابعة من مساء اليوم بالضبط . . كما قال المخبر . . » .

انتفضت واقفًا بعد أن ألقيت بجسدى المكدود على المقعد، وهتفت فى ذعر :

– «لماذا؟؟» .

– «لا تنزعج . . المخبر يقول إنه لمصلحتك . . » .

- «ومنذ متى يفكرون فى مصلحتى . . ؟» .

- «وهل علينا سوى طاعة الأوامر؟؟» .

- «أجل . . وإلا ساقونا إلى المعتقل من جديد، فهو ما زال مكتظًا بالمعتقلين . . » .

إننى أعرف المكان جيدًا، عافت نفسى الطعام، ولم أستطع النوم، أغمضت عينى لكنى كنت أفكر حتى تصدعت رأسى وكادت تنفجر، ولزمت الصمت، زوجتى تدرك ما أعانى، وهي متأكدة أننى يقظ برغم إغماضة العين، والكف عن الحركة، همست فى رفق :

- «أتريد قرصًا من الإسبرين وكوبًا من الشاى؟؟» .

- «لا بأس . . » .

أقول أنا أعرف المكان جيدًا . . ذهبت إلى شارع خيرت . . باب وزارة الداخلية . . الحرس . . لشد ما أكره هذه الوجوه الكالحة المتغطرسة المقززة! ومن مكتب إلى مكتب . . والتقيت بأحد المسئولين الكبار . . كان يجلس وبيده فنجان قهوة وبالأخرى سيجارة أمريكانى . . وعلى الجانب الأيسر للمكتب جلس رجل بيده أوراق . . قال المسئول فى ثقة لا حدود لها :

- «أنا الذى كتبت تقرير الإفراج عنك . . » .

- «متشكر جدًا يا بك . . أطال الله عمرك . . » .

- «وتحملت مسئوليتك يا عبد القادر . . » .

- «وأنا عند حسن ظنك يا بك . . » .

- «يعنى . . لو تصرفت أى تصرف أحمق فسيمسك المدير بتلابيب، وتشير إلى أصابع الاتهام والشك . . » .

- «لا سمح الله يا بك . . » .

- «فلتصدقنى الحديث إذن . . » .

رفعت رأسى فى خوف، ترى هل هناك اتهام جديد، أو شكوك أحاطت بى؟؟ إننى أرى الرجل الجالس على اليسار يكتب كل شىء . . تمامًا كما يحدث فى محاضر التحقيق مع المتهمين . . هتفت فى وهن وارتجاف:

- «لن أقول إلا الصدق، أقسم لك . . » .

- «حسنًا، فلماذا ترغب فى السفر للخارج إذن؟؟» .

ماذا أقول؟؟ أيمكننى أن أصرخ فى وجهه قائلاً هربًا من ظلمكم ومطاردتكم لى؟؟ لكى أنجو بجلدى وأعيش كإنسان؟؟» لو قلت ذلك لكنت مجنونًا أو أحمق . . وهمست فى أدب جم:

- «من أجل لقمة العيش» .

- «من أجل لقمة العيش؟ أم لتكون جبهة معادية فى الخارج؟؟» .

انتصبت واقفًا فى ذعر:

- «يا سعادة البك. . تاريخى معروف. . وأنا رجل لا أكنُّ إلا الحب والاحترام لوطنى. . ».

- «والحكومة؟؟».

- «والحكومة والرئيس. . ».

سدد إلىّ نظرات ثاقبة متشككة، وقال آمرًا:

- «اجلس. . ».

جلست وأنا أتصبب عرقًا، كنت أعرف أن لسانى يتكلم بلغة، وقلبى يتكلم فى داخلى بلغة أخرى، وعاد «البك» يقول فى سخرية واضحة:

- «أتحبون الرئيس الذى أمر باعتقالكم و. . ؟؟».

هتفت فيها يشبه اليقين والثقة:

- «هذا أمر آخر يا سعادة البك. . لأن مصلحة البلد فوق كل اعتبار. . وفوق المصالح الفردية. . أنا مسئول عن نفسى فقط. . وقضية التحفظ- (وهى كلمة مهذبة بديلة عن الاعتقال)- فرضتها ظروف أمنية بحتة. . إننى أدرك ذلك كرجل مثقف. . ».

وفاجأنى على الفور بسؤال لم أتوقعه، ويبدو أنه لم يهتم كثيرًا بإجابتى عن سؤاله الأخير، قال:

- «ما هى الصلة الحقيقة بينك وبين المهندس «فايز عثمان»؟؟» .

ترى من الذى أخيرهم باسمه وعلاقته بى؟؟ إنه هو الذى أرسل إلى العقد، ودبر لى العمل، ما دام الأمر كذلك فلا بد أن أكون واضحًا، وإلا ضاع كل شىء، يجب أن أتكلم بحساب؛ لأن قرار السماح لى بالسفر لا شك سيعتمد على ما أقوله.

- «فايز عثمان زميلى فى الدراسة. . وكانت تربطنى به صداقة وطيدة. . لكنى أشهد الله أنه لم ينتم إلى أى اتجاه سياسى طوال حياته. . كان يقول العلم. . والعلم فقط. . ولا شىء غير العلم. . » .

- «إنه يعرف الكثير عنك. . » .

- «بالطبع يا سعادة البك. . » .

- «بل يعرف أكثر مما يجب. . » .

- «كيف؟؟» .

- «مثلاً. . أرسل يهنئك بالخروج من المعتقل. . فكيف عرف نبأ اعتقالك. . » .

ثم قال محركًا سبابته فى جد:

- «حذار أن تكذب. . لقد وقع فى أيدينا الخطاب الذى أرسله إليك. . والعقد أيضًا. . انظر هذه هى صورة كل منهما الزنكوغرافية. . » .

- «بالضبط . . تمام . . هذا حقكم يا سعادة البك . . رقابة بريدى أمر لا يزعجنى . . هذه إجراءات لصالح البلد . . لكن سعادتك تعرف أن أنباء الاعتقالات أمر لا يمكن كتمانه . . ولعله فهم من رسالتى أننى حر بدليل أننى أطلب عملاً . . من يدرى كيف عرف؟؟ وبالمناسبة فإن صورة الخطاب الذى أرسلته إليه لم أزل أحتفظ بها . . إننى واثق مما أقول . . » .

قال المسئول الكبير :

- «أليست لك وظيفة فى مصر؟؟» .

- «كلا؟؟» .

- «ألست مكلفًا؟؟» .

- «كلا . . » .

- «هل حاولت البحث عن عمل؟؟» .

- «لم أجد ما يناسب . . » .

- «ولماذا لم تخبرنا يا عبد القادر . . » .

- «لأن . . فى الواقع . . لكن . . » .

- «تكلم يا عبد القادر بصراحة . . » .

- «لم أشأ أن أزعجكم يا سعادة البك . . » .

أخذ المفتش نفسًا عميقًا من سيجارته، وقال:

- «البلد فى حاجة إليكم يا عبد القادر.. المهندسون الآن عملة صعبة.. وهم عماد النهضة الصناعية الكبرى التى يرعاها السيد الرئيس..».

- «نحن خدام البلد يا سعادة المفتش..».

- «لو كان الأمر كذلك لما هربت من وطنك من أجل حفنة من المال.. أين الوطنية والولاء والانتماء يا عبد القادر؟؟ ألا تخجل من نفسك يا أخ؟؟ هل هذا هو الإسلام؟؟ هل تلك هى المبادئ التى تؤمن بها؟؟».

دارت بى الأرض من جديد، إنهم يكذبون، ويدمرون كل شىء حتى الأحلام الجميلة، ينقضون عليها دون رحمة، ويتحدثون بلغة الخداع والغش، ويزيفون المواقف، لو أرادوا إنصافى حقًا لما حرمونى من فرصتى فى أن أكون معيدًا بالجامعة، ولما حاربونى فى رزقى، ولما وقفوا عقبة فى طريق تعيينى.. فالتعيين فى أى مكان لا بد من موافقة المباحث عليه.. إنهم لا يريدون للعصافير أن تحلق وتغرد فى حرية.. ماذا أفعل؟؟.

قلت والدموع تترقرق فى عينى:

- «إذا سافرت فسأحمل الوطن فى قلبى.. سيكون أغنيتى فى الصباح والمساء.. أريد أن أرى العالم، وأكتسب الخبرة، ثم

سرعان ما أعود إلى وطنى ومعى ما يساعدنى على إقامة مشروع مفيد، إن سفرى شىء شبيه بالبعثة العلمية؛ لأنى فعلاً أنوى الحصول على مؤهلات أعلى. . إنى أسافر من أجل وطنى. . وطنى هو حياتى. . ».

قال مكفهر الوجه:

- «أنا أكره الشعر. . ».

- «بل أقول الحقيقة. . ».

- «معظم الذين خرجوا نسوا الوطن. . ولم يفكروا إلا فى ذواتهم ومصالحهم. . كيف تنفق عليكم الدولة المبالغ الطائلة، ثم تفرون. . أنت فلاح. . وتعرف المثل الذى يقول: «الشجرة التى لا تظلل على أهلها حلال قطعها. . » هل تعرف هذا المثل؟؟».

قلت وقد أطرقت فى حيرة:

- «نعم أعرفه. . ؟».

مرة أخرى يبدو أن كل آمالى فى الخلاص تنهار. .

وجاءنى صوت المفتش مرة أخرى يقول:

- «هل اشتركت فى معركة الفدائيين بالقتال عام ١٩٥١؟؟».

- «لم يكن لى الشرف!!».

- «هل شاركت فى حرب فلسطين؟؟»

- «كنت صغيراً . . » .

- «هل دفعت اشتراكات مالية أو تبرعات فى تنظيمات الإخوان؟» .

- «ولا مليم . . » .

- «لماذا اعتقلت إذن ؟؟» .

- «لا أعرف . . » .

عاد يسدد إلىّ نظراته النافذة المخيفة ، وقال :

- «إذن فنحن نظلم الناس ، ونعتقلهم دون مبرر» .

- «لم أقل ذلك يا سيادة المفتش . . » .

- «ليس المهم أن تقوله . . إنه مفهوم . . » .

- «لقد حققتم معى قبل ذلك فى الموضوع نفسه . . وهذا ما كنت أقوله دائماً . . » .

- «لكنك كنت فى التنظيم يا عبد القادر . . » .

- «لم يحدث . . » .

قال مهدداً :

- «أستطيع أن أعيدك إلى المعتقل . . إخوانك لم يزالوا هناك . . أنت تعرف . . » .

- «إننى أقول الحق، ولم يشهد فرد واحد بأنى كنت معه فى تنظيم..».

- «لكن ميولك كانت إسلامية».

عدت أنظر إليه فى ضعف وحيرة، وهمست:

- «أنا مسلم..».

صرخ فى حدة وهو يقذفنى بتفيف السيجارة المشتعلة:

- «كلنا مسلمون يا ابن الكلب..».

ذهلت.. أو بمعنى آخر صعقت.. كأن حجرًا صلبًا نزل على رأسى فجأة.. أحسست بالضياع والعار.. السيد المبجل المفتش العام الذى يلقى علىّ دروسًا فى الوطنية والنهضة الصناعية.. يشتمنى لأنى أقول الحقيقة..

وكم كانت دهشتى عندما رأيته يربت على كتفى فى حنان غريب، ويقول فى رقة متناهية:

- «آسف يا ابنى.. عندما أغضب لا أعرف ماذا أقول أو ماذا أفعل.. إن مشكلتكم العويصة قد سببت لنا الانهيار العصبى.. أحد زملائنا- حنفى بك- أنت تعرفه.. إنه يعالج الآن في مصحة للأمراض النفسية.. والسبب أنتم.. لقد حرمتمونا من الراحة والنوم ومن الاستمتاع بالحياة.. إنها مسئوليات لا فكاك منها..».

ثم التفت إلى الرجل الجالس على اليسار، وقال :

- «هات لعبد القادر شاى يا سليمان . . » .

- «حاضر يا أفندم . . » .

وساد الصمت . . يا للعذاب الذى لا ينتهى، متى أخرج من هذا المكان؟؟ ليكن ما يكون . . فلأسافر أو لا أسافر . . أصبح الأمر نسيان . . ولا بأس أن يعيدونى إلى المعتقل . . إن شعوراً بعدم المبالاة أخذ يسيطر على . . وسمعته يقول :

- «كان فى إمكانى أن أمنع زوجتك من العمل، لكنى أغضيت الطرف عن ذلك . . كنت متأكداً أنها فى حاجة إلى المال . . والحقيقة أنها كانت فى حالتها . . لا تتحدث مع أحد، ولا تتدخل فيما لا يعنيها . . ولهذا تركناها وشأنها . . أنا نعم . . إن فيكم أبرياء . . وأنا متأكد من ذلك ألف فى المائة . . لكن فلسفتنا هى «الوقاية» . . ألا يقولون إن الوقاية خير من العلاج؟؟ وأنت لك صداقات من الإخوان . . وتتزاور معهم . . وتصلى أحياناً فى جماعتهم . . وسلوكك العام يوحى بشىء . . أو بمعنى أوضح لديك المؤهلات التى تجعلك من تنظيماتهم . . و لا بد من ضربة إجهاضية حتى لا ينتهى بك المصير إلى الانضمام إليهم . . هذا فيما أعتقد لمصلحتك . . » .

كنت أستمع إلى المفتش فى اهتمام . . كلماته فى نظرى هراء وسخف ولا تنبي إلا عن عدم الثقة فى النفس، وتؤكد بما لا يدع

مجالاً للشك أن الإدارة مذنبة وجائرة وظالمة . . ولولا ذلك لما ركبهم الخوف لهذا الحد الجنونى . . لكن ليس أمامى سوى أن أسمع وأطيع . . ووجدتنى أعلق بملء فى :

-«صح يا بك . . » .

- «هذا عين العقل . . أعتقد أنك فهمت . . » .

- «بالتأكيد . . » .

- «هل ما زلت تريد السفر؟ . . » .

وبالقوة نفسها والثبات قلت :

- «نعم . . » .

قال المفتش وهو يتفحصنى جيدًا للمرة العشرين أو أكثر :

- «القرار ليس قرارى . . وأنت اسمك فى القائمة أعنى قائمة الممنوعين من السفر . . لكن قد يكون لك نصيب فى الاستثناء . . وإنى أعدك بالمساعدة . . » .

قلت فى صراعة :

- «متى؟؟ تعرف سيادتكم أن العقد أعطانى مهلة شهرين . . وهذه فرصة قد لا تتكرر . . » .

وقال وهو يشعل سيجارة أخرى :

- «اشرب الشاى . . » .

أجراس الترام تدق فى مسمعى بنذير الخطر، وأبواق السيارات والحافلات تصنع عالمًا من فوضى وضوضاء، الصخب والجنون متلازمان فى خيالى، الشعارات والهتافات والخطب الطنانة نوع آخر من الصخب، ليس لهما فى رأسى سوى معنى واحد: الكذب.. وأنا أمضى شارد الخطا فى دنيا من خداع وكراهية.. كنت أسير على غير هدى.. أريد أن أمشى لأنفث عن كرباتى، مسجد السيدة زينب وجدته فجأة على يمينى.. لم يأت إلىّ بالتأكيد.. أنا الذى ذهبت إليه.. لأن قدمى يدكان أرض الشارع.. أحسست برغبة عارمة فى أن أقف فى المحراب بين يدى الله لأصلى العشاء ولأذرف الدموع..

قالت لى بدرية:

- «خير..».

قلت لها:

- «القائمة السوداء..».

قالت:

- ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

- «ذكرتنى بالكبير.. القادر..».

- «ما أظنك تنساه يا عبد القادر..».

- «لماذا خلقت الشياطين؟؟» .

- «لحكمة يعلمها هو . . » .

قلت :

- «أشعر الآن إنى أفضل . . » .

- «كيف؟؟» .

- «لأنى لن أطرق بابًا غير بابه . . » .

- «ونعم بالله . . » .

كنا نأكل الخبز بالجبن ، والصمت يطبق من حولنا ، وهدى نائمة محتضنة لعبتها . . تلك العروس الشقراء . . ونظرت إلى وجه بدرية . . وأطلت النظر . . وجدتها تبتسم . . عجبت فى البداية . . لماذا تبتسم ، قرصتنى من يدى ، وضحكت وضحكت . . وقالت وهى تقترب منى ، وتضع اللقمة فى فمى :

- «والله لتفرج . . » .

- «أتقسمين؟؟» .

- «لأن عشمى كبير فى الله . . وهو كريم ورحيم . . » .

كانت عيناها تشعان نورًا طاهرًا باهرًا . . هكذا رأيت . .

●●●



قضيت أسابيع باحثًا عن الحقيقة، أذهب إلى «المجمع» بميدان التحرير فيحيلوننى إلى المباحث العامة، وعندما أذهب إلى المباحث يشيرون علىّ بالذهاب إلى مصلحة الجوازات بالمجمع مرة أخرى، وهكذا أخذت ألف وأدور كالثور المعصوب العينين، وكلما أوغلت فى البحث والسؤال ازددت يأسًا وجهلاً، واستبد بى الضيق أكثر، فتجرأت وكتبت التماسًا مفصلاً بمشكلاتى إلى رئاسة الجمهورية، كنت أسمع أن كثيراً من المظالم ترتكب باسم الرئيس، والرئيس منها براء.. وأن رجاله وأعوانه الموثوق بهم قد يسيئون إلى سمعته دون أن يدرى، ولهذا قررت أن أكتب إليه.. عارضتنى زوجتى قائلة:

- «لا تندفع وتأن..».

- «وماذا فى ذلك يا بدرية.. إننى أشكو لولى الأمر، وهذا حقى.. ولديه مكتب خاص بشكاوى الجمهور..».

- «قد يلحقك اللوم أو . . » .

وسكتت فأكملت قائلاً :

- «والانتقام . . أعرف ما يدور فى رأسك . . » .

قلت فى إصرار :

- «سأدق كل باب . . » .

- «من الصعب علينا أن نقضى حياتنا نطرق الأبواب . . » .

- «نحن نطالب بحقنا الطبيعى . . » .

استدعيت مرة أخرى للمباحث العامة ، أصبحت لا أرتبك أو أرتعد كالأمس ، ليكن ما يكون ، ذهبت هذه المرة هادئ الأعصاب إلى حد كبير ، وحينما أخذونى إلى سيادة المفتش بادرنى بقوله :

- «الرئيس هكذا دفعة واحدة؟؟ من تظن نفسك؟؟ وما دخل الرئيس فى أمر كهذا؟؟ نحن الذين نقرر . . إنه لا يعرف مثلما نعرف . . ؟» .

أدركت على التو أنه يشير إلى شكواى ، تمالكت نفسى أمام هجومه وغضبه ، وقلت :

- «إنه مجرد التماس لرئيسنا والمسئول عنا . . وهذا يثبت إخلاصى وحسن نيتى . . و . . وثقتى . . » .

نظر فى غيظ وهتف :

- «إننى أعرفكم . . ثعابين . . » .

- «هل يغضبك يا سعادة البك أن ألح فى طلب حق من حقوقى؟؟» .

دق بقبضته على المكتب وصاح :

- «إنتم بالذات ليس لكم حقوق . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنكم مجرمون . . خونة . . كلاب . . » .

طأطأت رأسى فى أسى ، من يستطيع أن يرد أو يدافع ، إن كلمة واحدة منه تقذف بى مرة أخرى إلى المعتقل ، وإذا حدث ذلك لا قدر الله ، فسينهار تخطيطى وتتحطم آمالى ، ما أكثر ما غضضت بصرى ، وأغلقت سمعى عن الإساءة ، النصيحة الذهبية التى كانت توجه إلينا دائمًا أن أردد لا أرى . . لا أسمع . . لا أتكلم . .

- «آسف يا سيدى . . لم أقصد أن . . » .

هتف ملوحًا بيده فى عصبية :

- «كفى . . لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة . . إن أمثالك يجب أن يلقوا فى السجن إلى الأبد . . » .

ثم قذف بورقة أمامى، وقال وهو يشير بسبابته :

- «وقع باسمك واضحًا هنا . . » .

وأخذت أسجل اسمى بوضوح، واستطعت أن أتلصص بعينى فى الكلمات المكتوبة أعلى التوقيع، كانت تقول : « . . المذكور ممنوع من السفر لأسباب سياسية، وقد سبق اعتقاله ضمن جماعة الإخوان المسلمين، وجاء بحث حالته حسب النظم الموضوعة» .

وانتزع الورقة من بين يدى، لم يطلب منى الجلوس، بقيت واقفًا وهو يسجل بقلمه بعض الكلمات، ثم أشار بيده فى إهمال واشمئزاز، وقال :

- «خذوه حتى الصباح . . » .

تصورت أنى ذاهب إلى بيتى، لكن الرجل الذى صحبنى معه ساقنى إلى أسفل المبنى دون أن ينطق بكلمة، ثم سلمنى إلى رجل آخر، أخذنى بدوره إلى غرفة صغيرة ودفع بى إليها قائلاً :

- «لتبق هنا حتى الغد . . لا أريد أن أسمع صوتك، ولا شك أنك لست فى حاجة إلى عشاء أو ماء . . » .

بقيت مذهولاً بضع دقائق، ما هذا الذي يحدث؟ معنى ذلك أننى معتقل . . هذه هى الزنزانة . . ودلو البول الفارغ . . وها هو الباب المغلق . . والظلام . . ثم الخوف . . والغد المجهول . .

وزوجتى ستنظر . . ولن تنام . . وستمزقها الحيرة، ويعتصرها الألم، وستبكى الصغيرة هدى . . يبدو أن عذابنا ليست له نهاية!!

وجدت لوحًا من خشب متسخ مغبر . . جلست عليه مرهقًا، ثائر النفس، منتفض الجسد لا حيلة لى فى أن أكره . . والأنكى من ذلك أن أكتم الكراهية بين جوانحى . . هذا زمن العبيد . . ما أعجب المفارقات . . إننى أسمع صوت المذياع يردد «من أجل عينك عشقت الهوى» . . كان من الصعب علىّ أن أنام . . هممت أن أصرخ، لكنى أكتم صرختى . . وأدع الصرخة تنداح فى داخلى . . ويتردد صداها الملتهب فى أعماقى . . تخيلت أن كل شىء قد انقلب رأسًا على عقب . . وأن الظلم قد اندحر . . وأُدْخِل حضرة المفتش مكانى هنا . . وجلست أنا فى مكانه هناك . . خَلف ذلك المكتب الأنيق . . ثم استدعيته للتحقيق . . وأخذت أعدِّد له جرائمه . . ترى ماذا سيكون جوابه؟؟ أعرف . . سوف يقول إنه مظلوم . . وإنه كان مجرد أداة لتنفيذ الأوامر التى تصدر إليه من أعلى . . وإنه مثل عشماوى الموكول إليه تنفيذ حكم الإعدام على المدانين فى الجرائم . . وأنه على استعداد بأن يفعل برؤسائه القدامى ما فعلوه بالأبرياء أمس . . وسيؤكد لى أن لعبة الحكم هكذا تمضى . . منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا، وأن هذه أمور لا يعرفها الجميع . . وأن . . وأن . . المفتش يذرف الدموع . . ويستعطف ويقبل الحذاء . . أنا أب، وفى عنقى أسرة كبيرة . . والله أوصى

عباده بالرحمة يا عبد القادر بك . . أنا أعرف الكثير من الحقائق المفيدة، والمعلومات المهمة، وأنتم لا شك فى حاجة ماسة إلى معرفة هذا كله يا عبد القادر بك . . إن لدى المبررات الكافية لكى تقدموا أعداءكم المشنقة . . و . .

عند هذا الحد من التفكير، وجدتنى أبكى من شدة الانفعال، وأردد ما قاله الرسول ﷺ يوم فتح مكة والإمساك بأعدائه :

- «**ماذا تظنون إنى فاعل بكم؟؟**» .

قالوا :

- «خيراً يا محمد . . أخ كريم وابن أخ كريم . . » .

قال ﷺ :

- «**اذهبوا فأنتم الطلقاء..**» .

وأخذت أنشج باكيًا حتى لاح الفجر . .

فى العاشرة صباحًا عدت إلى بيتى - كالعادة- مرهقًا شاحبًا حزينًا، استقبلنى بدرية مختنقة العينين، قلقة النظرات، وهتفت :

- «أين كنت؟؟» .

قلت وأنا أتكلف الابتسام :

- «مراجعة بسيطة لدرس قديم كدت أن أنساه . . » .

لم تفهم ما أرمى إليه، وبدت الحيرة جليلة على ملامحها الفاتنة الصابرة المؤمنة، وتمتمت وأنا ألقى بجسدى على المقعد الصغير فى الصالة :

- «ليتنى سمعت نصيحتك . . ».

- «ماذا تقصد؟ . . ».

- «الالتماس . . لقد أدى إلى الالتباس . . ».

- «كلامك كالفوازير التى كثرت فى هذه الأيام . . ».

وشرحت لها الأمر بتفاصيله، لم تستطع أن تعلق، بل لعلها لم ترد ذلك، كانت عيناها تشيان بالكثير مما تريد قوله، لكنها أدركت ما أعانيه من آلام نفسية مبرحة، فآثرت أن تذهب لإعداد طعام الإفطار، وإعداد الحمام لأزيل ما علق برأسى وجسدى من غبار وعرق، والحقيقة إننى كنت فى حاجة ماسة إلى النوم، بل ولدى رغبة عارمة فى أن أعتكف بالبيت بضعة أيام حتى أسترد صحتى النفسية المنهارة، وأستجمع فكرى المشتت، وأهدئ أعصابى المتوترة المرهقة، وخاصة أن سيادة المفتش قد أمرنى بألا أتردد عليهم أو أذهب إلى الجوازات، إلا إذا وصلنى منه ما يسمح لى بذلك.

●●●

قالت زوجتى بهدوء حزين:

- «يجب أن تكون لأحلامنا حدود..».

- «ليست هناك أحلام.. إننى أريد أن أعيش..».

قالت وهى تضع كوب الشاى أمامى:

- «لتنس موضوع السفر..».

- «ثم ماذا؟؟».

- «تبحث عن عمل.. أى عمل.. إن مقاولى المبانى يملأون البلد وحركة البناء على قدم وساق..».

شردت ببصرى إلى بعيد:

- «لشد ما أنا متيم بالصحراء.. والبحر الواسع.. والهدوء.. فى الأرض البعيدة أتخيل واحة السلام والأمان.. هذا ما ينقصنى.. أنا لا أبحث عن مال يا بدرية..».

- «الجنة ليست على الأرض..».

- «لكنى متأكد أنها موجودة.. وقريبة.. بل فى داخلى لقد أحسست بها بضع لحظات.. أتعتقدين أنى واهم؟؟ إننى متأكد، لكن الذى يعذبنى هو إيمانى الشديد بأنى لن أعثر عليها هنا، ليست مدينتى مكانها.. وليس زمنى زمانها..».

ويبدو أن زوجتى بدرية كانت أكثر واقعية وأملاً منى، فهى تدرك أن تعلقى بأمل السفر، واعتباره الحل الأمثل مسألة فيها خطورة، فإذا ما فشلت فى ذلك، فسيكون له مردوده السيئ على حياتنا كلها، ومن ثم كان اعتراضها على تصوراتى، وأخذت تشرح وجهة نظرها، وتقدم الدليل تلو الدليل على ما تعتقده، ومن جملة ما قالته: إن الملايين يعيشون فى المدن والقرى، ويمرحون ويسعدون ويغنون ويرقصون، وإن السعادة موجودة فى كل مكان، لكن المأساة أننا نشك فى وجودها، عندما تطحننا التعاسة، وتطبق علينا الكوارث، مع أن التغير من طبيعة الأمور، وتعتقد بدرية أن الأحزان الحالية ليست أزلية، وقد يأتى الفرج فى أية لحظة، وأخذت تذكرنى بأيامنا الجميلة الأولى، وما فيها من أفراح وروعة.. كانت تريد أن تقول إن من الخطأ الفادح أن نربط السعادة بوضع معين، أو بتحقيق أمل بذاته، والحقيقة أن كلماتها البسيطة المؤمنة جعلتنى أردد:

-﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أشرقت وجهها الحلو بالفرحة الغامرة، وسعدت روحى بأغانيها العذبة الصامتة.. إن لبدرية أغنيات من نوع غريب، لا أسمعها بأذنى، ولكنها تسرى فى دمى، وتسكر قلبى، فيخيل إلىّ أنه

الطرب الخالد . . ولأغانيها موسيقى عذبة أتمايل معها فى نشوة غريبة، طوقتها بذراعى وهى تقول:

- «هل اقتنعت بكلامى؟؟» .

- «يجب أن نكون أقوى من نكد الحياة . . » .

قالت فى مرح:

- هل توجد علاقة بين الحياة والحية؟؟» .

ووجدتنى أضحك من كل قلبى . . كما لم أضحك من قبل . .

قلت فى مداعبة:

- «أنت صغيرة على الفلسفة» .

- «أريد أن أعرف . . » .

- «لماذا تفكرين فى أمور كهذه؟؟»

- «كثرة النوح تعلم البكاء . . » .

مسحت على شعرها بيد حانية، وقلت:

- «الحياة ناعمة الملمس . . جميلة . . مغرية . . لكنها قد تفاجئنا بما لا يسر . . والثعابين تتسلل خفية وقد تقرصنا . . ويسرى السم . . » .

- «لكنها لا تقرص اليقظ . . النشط . . » .

خرجت لأتسوق فى شارع «الترعة البولاقية»، بعد أن ذهبت بدرية لعملها، كانت هدى على كتفى، أسواق الخضار مزدحمة، وعربات الكارو تبعث بألحانها المميزة الخشنة، مختلطة بأصوات الباعة.. جاءنى صوتها:

- «يا باشمهندس.. طال غيابك.. يا قاسى..».

- «السلام عليكم يا ست «بسبوسة»..».

يقع «مقهى المعلمة بسبوسة» على ناصية شارع قريب من مسكنى وهى جارة لى من قديم، وتمتلك المقهى «وكشك السجائر» المجاور لها، أرملة تخطت الخامسة والخمسين، وكثيراً ما كنت أجلس فى مقهاها مع بعض الأصدقاء القدامى، نشرب الشاى أو نلتهم سندوتشات الفول والطعمية، والجميع يعرفون أنها امرأة مكافحة، تحملت العبء بعد وفاة زوجها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، يقولون عنها إنها بعشرة رجال، وذلك لصرامتها وكفاحها الدائب من أجل بناتها الأربعة التى أحسنت تربيتهن، وزوجتهن جميعًا زيجات مناسبة لمستواهن الاجتماعى، ولم يعرف عنها أنها تأوي أحدًا من متعاطى المخدرات أو منحرفى الأخلاق من اللصوص وأعضاء العصابات، ولذا فهى تحظى باحترام الجميع.. جلست على مقربة منها، وهيأت لهدى مقعدًا إلى جوارى، جاءت «المعلمة بسبوسة» وقبلتها، ووضعت قطعة حلوى فى يدها..

قالت بسبوسة :

- «الله يجازى أولاد الحرام . .» .

- «المسامح كريم يا معلمة . .» .

- «لم نكن نستطيع أن نفتح فمنا بالسؤال عنك . .» .

- «أعرف . . وأنا مقدر لظروفكم جميعًا . .» .

- «ربنا يقصف عمرهم . .» .

وأخذت تسألنى عن أحوالى ، وكم كانت دهشتها عندما علمت أننى بلا عمل ، ووجدت الألم الحقيقى يرتسم على محياها ، كانت سمراء مكتنزة ، لكن فى عينيها يقظة وذكاء ، وأخذت تفكر معى ، وخاصة بعد أن علمت بالعقبات التى اعترضت طريقى فى السفر إلى الخارج . . ثم قالت :

- «أنت يا ضنايا فى حاجة إلى إسعاف سريع . .» .

ضحكت وهمست :

- «الصبر طيب . .» .

قالت :

- «إن صبرت أنت وزوجتك ، فلن تصبر ابنتك الصغيرة . .» .

- «وماذا أفعل؟؟» .

- اسع يا عبد . . وأنا أسعى معك . . ».

ووجدتها تهتف فى سعادة، وتقول:

- «ابن حلال . . ».

وتركتنى واتجهت صوب الرصيف المقابل، وتبعتها بنظراتى، وجدتها تحيى ثلاثة من الرجال يرتشفون الشاى، ويدخنون النرجيلة، كان حديثها الهامس أساسًا مع أوسطهم، الذى يرتدى معطفًا من الصوف الرمادى الأنيق، فوق جلباب صوفى داكن، ويضع على عينيه نظارة طبية شفافة، ثم أشارت نحوى، فوجدت الرجل يرمقنى بنظراته، ثم يهز رأسه ويبتسم . . وعادت إلىّ المعلمة بسبوسة لتحمل إلىّ البشرى . . لقد وافق الحاج «على محمود» المقاول المعروف على إلحاقى بالعمل لديه فى شركته؛ لأنه كان يبحث فعلاً عن مهندس مناسب مؤتمن . . انتحى بى الرجل جانبًا، وأخذ يسألنى عن مؤهلاتى وخبرتى، ثم أخذ يشرح لى طبيعة العمل، وظروف السوق، وأهم القوانين المعمول بها، وأخبرنى أنه سوف يضعنى فى المكان المناسب، وهو قسم المشاريع والتصميمات، وأن المرتب سوف يكون فى حدود الثلاثين جنيهًا بصفة مبدئية . . ووافقت . .

كنت أعرف ما يشاع حول أسلوب العمل فى شركات المقاولات، فالنجاح فيها ليس سهلاً، وهناك ممارسات خاطئة

تختلط فيها الرشوة بالغش والكذب، بالمساومات، وقلَّ من يلتزم بالدستور الأخلاقى، أو يسير على النهج السوى، وبدا السرور على وجه «بدرية» عندما سمعت النبأ، وعلقت قائلة:

- «هذا هو الحل.. ألم أقل لك إن شاء الله لن ينساك أبدًا..».

- «لن أنسى للمعلمة «بسبوسة» شهامتها.. لكن..».

قالت بدرية:

- «لكن ماذا؟؟».

- «لن أيأس من تكرار المحاولة للسفر..».

- «يا إلهى أى إنسان أنت!!».

- «سأظل أحلم.. يموت الإنسان إذا فقد القدرة على الأحلام..».

ونامت العيون.. لكن ثأرى القديم لم يزل يشتعل فى قلبى إنى أحاول جاهدًا أن أنسى.. ليت الأمر كان مجرد ظلم.. لكنه ظلمٌ وفُجْرٌ.. وأنا بشر تحرقنى الذكريات المريرة، ويؤرقنى الخوف.. الخوف الذى أراه مرسومًا على الوجوه.. وفى الصحف.. والذى يسيل آهات فى مواويل المنشدين والمغنين الشعبيين.. وفى عيون السجناء الذين ما زالوا يرسفون فى الأغلال.. خلف الأسوار..

●●●



انتظمت فى عملى، عدت إلى الأقلام والمساطر وباقى الأدوات الهندسية أرسم على الورق، وأتخيلها شامخة عملاقة، وأتفنن فى لمسات الجمال، وكأنى أتعبد فى محراب، الحب طريق الإبداع، وأنا أحب عملى وفنى لدرجة كبيرة، حينما أعمل أجد نفسى، وتذوب همومى، وأشعر أن لىّ قيمة، وعلى الرغم من أن الهندسة علم إلا أنها تحتاج إلى خيال الفنان، وهذا هو الفرق بين المهندس العادى والمهندس الفنان، على ورق العملة فى تركيا يرسمون صورة المهندس «سنان» ذلك العبقرى الذى أبدع شوامخ المآذن والقباب فى مساجد السلاطين العظام من آل عثمان، وهندسة قدماء المصريين كانت علمًا وفنًا وعبادة.. فجاءت إنجازاتهم كالخوارق، فى أحيان كثيرة أتصور أن الهندسة هى صانعة حضارة الإنسان بعد العقيدة.. الإيمان أيضًا ضرب من الحب.. حب الله ورسوله والناس وهذا الكون المعجز، نعم.. المهندس يصنع الحضارة، لكنه فى بلدى.. فى العصر الحديث، تجمده وتشله حماقات رجال الأمن.. إننى

كثيرًا ما أفكر فى معنى الأمن، هل هو تكميم الأفواه، وحصار الشرفاء، وتأديب الأحرار، وتجميد الكفاءات والعلم والفكر والفن؟ لقد كان مشروعتى فى البكالوريوس يدور حول تجديد شبكة الصرف فى القاهرة التى تكاد تختنق بمن عليها من البشر، وبالمبانى العشوائية التى تقوم كالنبت الشيطانى هنا وهناك، عندما كنت أحدث أحدًا من المختصين عن مشروعى، كان يقهقه فى سخرية، ويقول: إنه يحتاج للمليارات الدولارات، وبلدنا ليس لديها من القمح ما يكفيها لمدة شهر، وكنت أقول:

- «لو لم ندخل فى حربنا الحمقاء فى اليمن، لكن فى أيدينا ما يكفى للبدء فى هذا المشروع المهم..».

لكنها السياسة «العليا» التى لا يصح أن يناقشها أحد، وإذا حاول ذو رأى أن يبدى ما يعتقده، فستكون تهمة الخيانة جاهزة، ومن ثم يقذف به- كما يقولون- وراء الشمس..

كان زملائى فى المكتب يعجبون لصمتى الطويل، ولتبتلى فى محراب العمل، ويتهامسون «الغربال الجديد له شدة» أى أنى متحمس فى البداية، وسرعان ما تفتر همتى، وأصبح مثلهم مترهلاً فاترًا، أنهى المنوط بى من عمل على أى وجه، لكنى لم أكن ألتفت إلى تعليقاتهم، وكان الحاج على محمود يبش لمقدمى، ويثنى على همتى، لكنه كان ينصحنى قائلاً:

- «أنت رجل عظيم وعملك فى منتهى الإتقان، لكن يجب أن تعرف أن فنك يكلفنا الكثير من الجهد والمال عند التنفيذ، ومواهب الفنيين الذين يعملون معنا متواضعة . . أرجو أن تراعى ذلك مستقبلاً . . وأنا قررت رفع مرتبك عشرة جنيهات دفعة واحدة . . أنت تستحق . . » .

لم أكن أكتفى بالعمل فى المكتب، فكثيراً ما كنت أحمل أدواتى معى إلى المنزل كى أكملها فى وقت فراغى، لم أفكر فى طلب أجر إضافى على ذلك، يكفى أننى أشعر بالسعادة القصوى حينما يخرج عملى مكتملاً مقنعًا لافتًا للأنظار، وعرف الجميع فى الشركة أننى خير من يعول عليه فى التصميم، بل إن شهرتى قد تخطت حدود الشركة، وأصبحت أجد من يأتى إلىّ سراً يطلب منى رسمًا وأحيلهم إلى الحاج «على محمود»، إذ لا يصح أن أعمل من «الباطن» من وراء ظهر الرجل الذى فتح لى باب الرزق . .

وعرف الحاج ذلك، فازدادت ثقته فىّ، وأصبح أكثر احتفاء بى، وتقديراً لعلمى وفنى وأخلاقى، وخاصة بعد أن انهالت عليه العروض، وأصبح غير قادر على الوفاء بها جميعًا نظرًا لإمكاناته المحدودة، وكثيراً ما كان يتجاهل زملائى فى المكتب، ويقصدنى أنا بالذات لإنجاز عمل مهم لصديق من أصدقائه الأعزاء، وكان يقول لصديقه فى اعتزاز :

- «لقد أحضرتك لأعظم مهندس تصميم عندنا. . ».

لم يجرفنى الغرور، أو يخرج بى عن الخطة التى انتهجها، أو السلوك الذى ارتضيته لنفسى، وعندما يكلفنى الحاج بحضور بعض الاجتماعات المهمة المتعلقة بالعمل داخل الشركة وخارجها كنت أحاول جاهدًا أن أبادله الثقة التى منحنى إياها؛ إخلاصًا وصدقًا، وهكذا عوضنى الله خيرًا عن أحزانى العريقة، فكنت أرفع يدى شاكرًا لله على أنعمه، وحامدًا له فضله، وأهرول لقضاء الصلاة فى أوقاتها. .

وفى مثل تلك الشركات تكثر الغيبة والنميمة والنفاق والأكاذيب، ولا عجب فى ذلك، إنه صورة منعكسة لما يحدث فى النظام العسكرى الحاكم، فيأتى إلى موظف يحذرنى من فلان وفلان، ثم يأتى آخر ويرمى واحدًا من المرموقين فى الشركة بالاختلاس والسرقة والرشوة، ويطعن ثالث فى أخلاقيات مسئول كبير، ويتهمه باصطياد النساء، ومعاقرة الخمر ولعب الميسر، حتى كان يخيل إلى بعض الأحيان أننى أعيش فى وسط عصابة متعددة الاختصاصات، وعلى الرغم من الدهشة التى كانت تملؤنى بالذهول، إلا أننى حاولت قدر الإمكان، أن أقف على الحياد، وأنسى ما أسمعه عن الآخرين، لكن الشك بدأ يساورنى بصورة مزعجة. . إن مثل هذا الجو لا يبشر بخير، فعندما تأتى الطامة،

وتحل البلوى، فهل ينجو منها أحد؟؟ إننا فى عصر يؤخذ الناس فيه بالشبهة والظن، ويأبى الأقدار إلا أن يرموا غيرهم من الشرفاء بالتهم، كى يتلوثوا مثلهم، هذا زمان الغدر والخيانة، فأين المفر؟؟

قلت لزوجتى:

- «آن أن تستريحى يا بدرية وتتفرغى للبيت . .».

- «لكنى لا أشكو من تعب، إن عملى بسيط . .».

- «هدى فى حاجة إليك . . وغدًا تضعين مولدك الثانى».

صمتت بدرية مفكرة، فاستطردت قائلاً:

- «إننى أقضى معظم وقتى فى العمل، والبنت فى حاجة إلى من يرعاها ويربيها التربية الحسنة . . وهذه مهمة مقدسة . .».

هزت رأسها موافقة، وهى تقول:

- «أعرف . .».

- «قد يكون من الصعب على امرأة تعودت العمل والكسب أن تنقطع هكذا فجأة، فضلاً عن أن التجربة المرة التى مرت بها بدرية أثناء اعتقالى جعلتها تعمل ألف حساب للمستقبل، وهى لم تقل ذلك، لكنى كنت واثقًا أنها تتساءل بينها وبين نفسها: ماذا أفعل إذا حدث - لا قدر الله- واعتقلوا عبد القادر مرة أخرى؟؟ إنها زوجتى وحبيبتى وأنا أعرفها، وأعرف كيف تفكر، ولها الحق أن تنحو هذا

المنحى من التفكير فى هذا الزمن الأغبر، ومع ذلك فقد اتفقنا على أن تستقيل من عملها، ما دام دخلى يوفر للأسرة احتياجاتها الأساسية.. والأرزاق على الله..

جاءنى الحاج على محمود، واختلى بى قائلاً:

- «خذ هذه الاستمارات، وهذه ثلاثة آلاف جنيه.. تأكد من عددها.. وضعها فى هذا الكيس.. معك العنوان.. ها هو.. عندما تقابل «عدلى بك» المدير احرص أن يكون وحده.. سلمه المبلغ وأحضر الأوراق بعد أن يوقع عليها.. إنها مأمورية سهلة..».

لم أفهم ما يرمى إليه الحاج، حاولت الاستفسار لكنه تركنى ومضى، وهو يقول: «لن يستغرق الوقت سوى دقائق.. عدلى بك ينتظرك..».

ركبت سيارة الحاج على، وأنا فى حيرة، لكنى نفيت ما انتابنى من حيرة فالأمر لا يعدو عن كونه إيصال رسالة من صاحب الشركة إلى رجل لا أعرفه، ومع ذلك فقد بقى القلق مستقراً فى أعماقى لسبب أجهله، وفعلاً تم ما طلبه الحاج على محمود.. كان عدلى بك فى الانتظار، وحينما دخلت وسلمت، ونظر إلىّ باهتمام وابتسم، ثم طلب من الحضور أن يخرجوا، أخذ الكيس ووضعه فى درج مكتبه وهو يقول:

- «ألم يرك أحد؟؟».

- «ماذا تقصد؟؟».

عاد يبتسم ويقول:

- «يبدو إنك رجل طيب، ووجهك يوحى بالثقة.. وخاصة تلك الزبيبة فى جبهتك.. سيماهم فى وجوههم من أثر السجود.. الحاج على محمود رجل ذكى.. داهية.. مبروك».

ثم وقع على الأوراق وسلمها لى، وهو يقول:

- «ألا تشرب القهوة؟».

صافحته شاكرًا، متحججًا بما لدى من أعمال كثيرة، ثم انصرفت، أخذت أدقق النظر فى الأوراق، إنها تصريح باستلام كمية كبيرة من حديد المسلح بالسعر الرسمى.. وفى التصريح أسماء لا أعرفها، الأمر يبدو أمامى طلاسم عسيرة الفهم، قال السائق «عم جابر» فجأة، ودون مقدمات:

- «كم دفعت له؟؟».

- «ثلاثة آلاف..».

تنهد عم جابر، وقال:

- «رحم الله أيام زمان.. كان يأخذ مائة أو مائتين.. لكنه

الغلاء . . أصبح الجنيه بعشرة . . أو بعشرين . . أنا مع الحاج على منذ بدأ مقاول أنفار . . وكبر هو . . وبقيت أنا . . حظوظ . . » .

قلت لعم جابر فى لهفة :

- «لماذا ندفع هذا المبلغ ؟؟» .

- «ثمن التصريح . . » .

- «لكن التصريح مجانًا . . أم تراه جزء من ثمن الحديد . . » .

التفت إلى استغراب ، ثم عاد إلى الطريق وهو يقود السيارة بتؤدة ورزانة ، وقال :

- «شيلنى وأنا أشيلك . . » .

- «ماذا تقصد؟؟» .

عاد ينظر إلىّ فى استغراب أشد ، ثم أسرع السيارة وهو يقول وهو يهز رأسه فى حيرة :

- «ألا تعرف؟؟» .

- «أبدًا . . » .

- «كيف وأنت باشمهندس كبير؟؟» .

وأخذ عم جابر يشرح لى الصورة بكل تفاصيلها ، وفهمت أن المبلغ الذى سلمته لعدلى بك ما هو إلا رشوة ، كى يحصل الحاج

على كمية من حديد المسلح بالسعر الرسمى . . بالتسعيرة، وأن هذا أمر متعارف عليه فى السوق، وجميع المقاولين يفعلون ذلك؛ لأنهم لو اشتروا الحديد والإسمنت والخشب والزجاج من السوق السوداء، فلن يحققوا ربحًا يذكر، كما فهمت أن هذه الحصص التموينية هى من حق الشعب المسكين، الذى لا يستطيع فى الغالب الحصول على نصيبه منها، فيلجأ لشرائها من السوق السوداء، أو يسلم أمره للمقاولين، وأن هؤلاء المقاولين هم ملوك السوق السوداء.

اقشعر بدنى لهول ما أسمع وكدت أصاب بانهيار عصبى لسبب خطير واضح، وهو أن الحاج قد استغلنى فى عملية الرشوة، والراشى والمرتشى فى النار كما تعلمت، وكانت فجيعتى فى الحاج أيضًا كبيرة. . هذا الرجل الطيب الذى يقدر كفاءتى فى العمل، ويواظب على صلاته، ويحج بيت الله، ويخرج الزكاة، ويعطف على الفقراء والمساكين، ولا يغش فى عمله، مثل هذا الرجل، كيف يسقط فى مستنقع الرشوة!! ثم ماذا كان من الممكن أن يحدث لو أنى وقعت فى كمين للشرطة؟؟ وكيف يكون موقفى وأنا أساق إلى السجن متهمًا بالرشوة، مع أننى بالأمس أخذت إلى المعتقل لاعتناقى أشرف المبادئ وأسماها؟؟ يا إلهى!! إن الموقف يبدو معقدًا وشاذًا ومحزنًا. .

نزلت من السيارة مسرعًا، ذهبت أسال عن الحاج فقيل خرج، هرولت إلى مكتبى الصغير، وأغلقت الباب، وجلست حزينًا أفكر، وقد أمسكت رأسى بين يدى، كنت مغمض العينين، أسترجع ما جرى اليوم. . الحاج بهيبته ووجهه السمح. . الثلاثة آلاف جنيه. . عدلى بك. . الذى يشبه وجهه وجه المرابى التقليدى، الأوراق والتوقيع. . وكلمات عم جابر. .

دق الباب، ففزعت من مكانى قائلاً:

- «مَنْ؟؟».

كان رئيس قسم الحسابات، وبدا على وجهه الخوف والاضطراب، واقترب منى هامسًا فى توجس:

- «ماذا جرى؟؟».

رفعت إليه وجهًا مرتبكًا، وقلت:

- «عم تسأل؟؟».

- «الأوراق والتوقيع. .».

- «هل تعرف؟؟».

- «بالطبع. . لكن قل لى أولاً. . هل وقعنا فى الفخ؟؟».

ألقيت بجسدى على المقعد، وسحبت الدرج، ثم استخرجت الأوراق ودفعت بها إليه، وأنا أقول:

- «لا تخف . . » .

اختطف الأوراق ثم جرى بنظراته القلقة على سطورها فى سرعة عجيبة، ثم انفرجت أساريره، واتسعت ابتسامته، ثم ضحك فى سعادة، وقال :

- «لقد انخلع قلبى من الخوف حينما علمت أنك أتيت فى حالة ارتباك وذعر . . » .

- «إذن فأنت تعرف كل شىء . . » .

- «هذا أمر طبيعى يا باشمهندس . . » .

- «طبيعى؟؟ أتقول طبيعى؟؟» .

- «وماذا فى ذلك؟؟» .

- «ألا تعرف أن الراشى والمرتشى فى النار . . » .

قال الرجل فى برود :

- «أعرف . . » .

- «ولا تخاف غضب الله . . » .

- «لست راشيًا ولا مرتشيًا . . ولا وسيطًا . . » .

انغرست كلمة «وسيط» فى قلبى كالسكين، وأخذ العرق يتصبب على وجهى، ودارت بى الأرض . . كنت أصرخ . .

- «اخرج . . اخرج . . » .

- «هل جننت؟؟» .

وسمعته يغمغم وهو يخرج :

- «ليأت الحاج كى يتصرف معك . . » .

جلست ساهمًا حزينًا، لكأن الحزن قدرى، إن العالم يضيق ويضيق، لقد عم الفساد، وطفحت القذارة الأخلاقية، كما تطفح أنابيب المجارى المهترئة التى تنوء بأحمالها النتنة، والكارثة أنهم يعتبرون ما يحدث من فساد أمرًا طبيعيًا، الأمر إذن كما قال معلمنا القديم رحمه الله «جاهلية القرن العشرين» . . والصحف والإذاعات تتحدث عن الطهر الثورى، والنقاء الثورى، وحقوق الكادحين، والقضاء على الاستغلال والرشوة والفساد . . ما أكثر الأشياء التى تقودنى إلى الاستقرار فلا أجد . . أيمكن أن تستمر الحياة على هذا النحو من السوء والتناقض؟؟

استقبلنى زوجتى ببشاشتها المعهودة، وارتمت هدى بين أحضانى، يا صغيرتى الحلوة، كم أحبك!! إن لدى يقينًا كاملاً بأنك سوف تكونين أسعد حالاً، وأفضل مستقبلاً . . لكن حذارى يا هدى يا ابنتى الصغيرة أن تنساقى وراء تيارات الصحف والفوضى، ولا بد أن تكونى ملتزمة، عقيدة وعلمًا وسلوكًا . . أتخيلك وأنت تلبسين الزى الشرعى مثل أمك،

وتنطلقين إلى الجامعة، وتستمعين إلى المحاضر فى وقار وخشوع . . العلم نور يا حبيبتى . . والسلطة ظلام . . السلطة التى نرزخ تحت أعبائها، ولا يغرنك الأشكال المادية التى يجعلون منها رموزاً للتقدم والتطور والتنمية . . فالحضارة والتقدم أخلاق يا ابنتى الغالية . . أخلاق . .

قالت زوجتى وهى تضع طعام العشاء :

- «فيم تفكر؟» .

- «فى هدى» .

- «تفكر فيها وهى تقبع فى حجرك تلعب بعروسها؟؟» .

- «بل أفكر فى الغد . . هى الغد . . » .

- «طالما قلنا المستقبل بيد الله يا عبد القادر . . » .

- «والله سبحانه أعطانا العدة كى نساهم فى تشكيله . . » .

وأخذت أروى لزوجتى بدرية ما حدث بالتفصيل، لم تكن تصدق وما تسمع، لكنها الحقيقة المرة، فأنا الذى حملت الرشوة، وأنا الذى قدمتها لعدلى بك، والجميع فى مقر الشركة لا شك يعرفون ذلك الآن، إنه أمر درجوا عليه من قديم، وكذلك تفعل الشركات الأخرى . . أين أذهب من نفسى؟؟ وكيف ألقى الله؟؟

فكرت بدرية وهى تأكل فى تكاسل، ثم نظرت إلىّ فى جد، وقالت:

- «أعرف أن هذا يؤلمك، لكن عزاءنا أنك لم تكن تدرك طبيعة ما تم تكليفك به..».

- «القانون لا يحمى المغفلين يا بدرية..».

- «انتهى الأمر، ولتتخذ موقفًا حازمًا..».

قلت باهتمام:

- «ما هو هذا الموقف؟؟».

- «قل للحاج أنك لن تقبل تكليفًا من هذا اللون مرة أخرى..».

هززت رأسى وتمتمت:

- «فلأستعد للتسكع فى الشارع من جديد.. ولأدق باب جهات الأمن لتسمح لى بالسفر.. مثل ساقية جحا..».

وبعد حوار طويل أيقنت أن المشكلة ليست بهذه الدرجة من التعقيد، وأن حلها ميسور، فما على إلا أن أصارح الحاج بالحقيقة، فأنا مهندس، وهناك كثيرون فى السلك المالى والإدارى بالشركة يمكنهم أن يذهبوا لعدلى بك، وقد يسعدون لهذا التكليف.. أما أنا فلا..

استقبلى الحاج فى اليوم التالى بوجه باش، قاسنى بنظراته الحانية الرفيقة، كيف يتواءم الخير والشر فى قلب هذا الإنسان؟؟ كيف تسيل روحه رحمة ورقة، ثم ينسكب من أفعاله ما يسىء للخلق والقانون.. الدنيا ألغاز..

قال:

- «لم أشأ الزج بك فى مأزق».

- «أنا لا أصلح لأمر كهذا يا حاج..».

- «أنى أحترمك.. وأفخر بك.. وبخلقك..».

- «وهل من الخلق يا حاج أن..».

رفع يده محتجًا، وقال:

- «لا تكمل.. لم أكلفك بذلك إلا لثقتى بك..».

- «لتكن ثقتك بى فى مجال تخصص عملى..».

- «كان المبلغ كبيراً..».

- «ليكن..».

جفف وجهه المكتنز بمنديل أبيض، وقال:

- «لم تترك الحكومة لنا خياراً.. ذلك هو الباب الوحيد المفتوح..».

قلت فى حدة:

- «إنها رشوة يا حاج..».

- «ولماذا لا تسميها ضريبة خفية؟؟»

- «إننا نتلاعب بالألفاظ..».

- «تجرحنى يا باشمهندس..».

ثم استدار إلىّ مسدداً نظراته مباشرة فى وجهى:

- ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

- «هذا أمر آخر..».

- «عدلى بك يدفع هو الآخر لمن فوقه.. وضباط الجيش المسرحون يسيطرون على أسواق الحديد والإسمنت.. ويتحكمون فى سوق القطاع العام.. ويتاجرون بأقوات الناس وبكل شىء.. من أين آتى بحصتى من الحديد والإسمنت إذن؟؟ إن لى حصة.. لكنى لا أستطيع!! ولمن أشكو.. حاميها حراميها.. اسمع لماذا سجنوك! قل لى.. هل أجرمت أنت؟؟..».

أفقت من هواجسى على كلماته الأخيرة، إذن فالحاج يعرف ماضىّ جيداً، ولا شك أن المعلمة «بسبوسة» قد أبانت له عن أمر كهذا.. أنا جريح فلماذا يا حاج تضيف إلى جرحى جرحًا أعمق، وتدفعنى دفعًا لارتكاب ما لا أحبه من أخطاء؟؟

تنهد الحاج فى ألم، وقال مستطردًا :

- «زواج المكره باطل . . فليسامحنا الله . . فلتبحث معى عن حل . . هم الذين يريدون ذلك . . الفساد سياسة . . والرشوة فرض على رجل الأعمال . . بل ورجل الشارع أيضًا . . اذهب وابن لنفسك بيتًا من دور واحد . . لن تحصل على الرخصة إلا بالرشوة . . ولن يدخلوا لك الماء والكهرباء إلا بالرشوة . . حتى عمالى الذين يأخذون منى مرتبًا محددًا لا يتقنون العمل إلا إذا أخذوا «البقشيش» من صاحب البناية . . بقشيش إجبارى . . إنه كالرشوة تمامًا . . اسمع يا بنى . . أنت جوهر نقى . . عش كما أنت . . جريمة أن أدفعك إلى فعل خاطئ . . عهد علىّ ألا أكفلك بشىء تأنف منه . . لو لم تكن متروجًا لزوجتك ابنتى . . أنا أحسدك على صلابتك . . ولا بد أن يوجد أمثالك . . لا بد . . وإلا تحولت الحياة إلى غابة . . » .

واقترب الحاج منى، وصافحنى بحرارة، وكم كانت دهشتى عند وجدته يضمنى إلى صدره فى حب، والدموع تترقرق فى عينيه، ويقول :

- «ست بنات . . نعم أنجبت ستة وليس فيهم ولد واحد . . لو وهبنى الله ولدًا مثلك لتنازلت عن كل ثروتى . . » .

ولم أنصرف قبل أن أشكره على حسن تقبله لموقفى، وعطفه السابغ علىّ، لقد شعرت باطمئنان بالغ أمام صدق كلماته، والغريب إننى ابتدأت فى التماس شىء من العذر له، ومع ذلك فقد أخذت أفكر من جديد فى الفرار. . الفرار من الوطن الغابة. . ترى أليس لهذا الحلم الشجى من نهاية؟؟





احترت فى أمر الحاج «على محمود» بعد أن قلبت الأمور على شتى جوانبها، عدت أتساءل عن سر هذا الرجل، ما حقيقته؟؟ أهو رجل طيب تدفعه الظروف القاهرة إلى تصرفات لا يرضى عنها، أم هو رجل داهية، يتقن التمثيل، ويحسن التظاهر بالبراءة؟؟ من الصعب فى الزمان أن تحدد موقفك من كل شىء، هناك الكثير من القضايا التى يقف الإنسان إزاءها فى بلبلة شديدة، وحيرة قاتلة، ومن ثم لا يستطيع أن يتخذ القرار الحاسم، وراودنى خاطر خبيث يهمس فى داخلى: أنت يا عبد القادر لا تختلف كثيراً عن الحاج على، لا تنزعج ولا تكابر فأنت مثلاً ما زلت ملتصقًا به، عاملاً فى شركته على الرغم من علمك الأكيد بأنه من مرتكبى الرشوة. . وأنت يا عبد القادر لم تفكر فى إبلاغ الشرطة، وتتستر على جريمة يحاسب عليها القانون، ويعاقب عليها الشرع، جريمة الإدانة فيها واضحة بالنسبة للقانون السماوى والقانون الوضعى، وأنت الذى تدعو لتحكيم كتاب الله، وتصارع السلطة من أجل

ذلك، ويقذف بك فى السجن بسببه، وتتكالب عليك المصائب والاضطهادات من جراء التشبث به . . أى خلل وأى انفصام فى الشخصية تعانى منه يا عبد القادر . . إن الأمر ليس بالبساطة التى تصورتها فى البداية، هذا هو الامتحان الصحيح الذى سوف يحدد موقفك نهائيًا، أنت ساكت عن الحق، وبذا تكون أخرس، ظننت فى البداية أن الحاج على معذور، إذ لا سبيل أمامه سوى أن يدفع، والمصيبة أنك كنت أداة فى يد الراشى . . بل أنت الراشى، لكنك فكرت دون أن تدري فى المرتب المعقول الذى تحصل عليه، وتذكرت أيام البطالة السوداء، وخروج زوجتك إلى العمل، وتركها لابنتك فى رعاية غيرها، وأيام السجن المحزنة، والعقبات التى يضعها رجال الأمن فى طريقك، وحرمانك من فرصة تعيينك معيدًا بالكلية، فقررت دون أن تدرى أن تتنازل . . نعم نتنازل عن بعض مبادئك، وعندما يبدأ الإنسان التنزل يا عبد القادر، يتوالى السقوط والهبوط إلى ما لا نهاية . . أأقول إلى الحضيض؟؟».

شغلتنى القضية لدرجة أننى فكرت فى عدم الذهاب إلى العمل، لكن زوجتى التى لاقت الأمرين كانت معارضة لما أفكر فيه، وكانت حجتها فى ذلك أن امتناعى عن العمل لن يغير من الواقع شيئًا إن لم يزده إلا سوءًا على سوء، وأقنعتنى أن بقائى فى العمل سوف يهيئ لى فرصة لإصلاح الحال، ونشر الطهارة فى ذلك المجتمع الآسن.

- «ألست صاحب دعوة يا عبد القادر؟».

- «بلى..».

- «فلتدع الذين يعملون معك إلى الاستقامة.. إن ذلك أهم من نشاطك السياسى الذى يبدو عديم الجدوى فى هذه الأيام..».

قلت فى شرود:

- «نعم.. أيام الرأى الواحد. والطاعة العمياء..».

- «ولذا أقول إن إصلاح المجتمع الصغير الذى تعمل فيه أجدى ألف مرة..».

كانت الخواطر تعلو بى وتهبط، والصراع النفسى الملتهب يؤرق نومى، ويفسد متعتى.. قال لى عم جابر السائق:

- الحاج على ابن سوق..

قلت له: «ماذا تعنى بابن السوق؟».

قال:

- «يعرف كيف يصرف أموره، ويرضى الجميع..».. لم أكن أدرى هل جابر يمدحه أم يذمه، وكيف يتحدث بهذا الأسلوب عن ولى نعمته، وهو سائقه الخاص؟؟

هتفت:

- «هل أنت معه أم ضده؟؟» .

ابتسم عم جابر العجوز ، وقال :

- «أنا مع نفسى» .

- «ألا تخاف أن يعاقبك أو يبعدك إذا ما عرف أنك تعرض به وتنتقده . . ؟» .

- «من قال ذلك؟؟ أنا أشرح الواقع . . ثم إن الحاج ليس على هذه الدرجة من الحماقة . . إنه رجل شديد الذكاء . . ومثال الرجل الناجح . . » .

يا سبحان الله ، إنه عالم من طلاسم ، وأنا ما زلت صغيراً لما حصلته من خبرات وتجارب تافهة ، كنت أظن أن تجربة السجن أقوى التجارب وأخطرها ، لكن الحياة واسعة . . مليئة . . غامضة وإدراك كنهها ، وفهم طبيعة الناس ، وإدراك مغزى سلوكهم ، أمر فوق قدراتى واحتمالي .

جلست فى مقهى «المعلمة بسبوسة» ، كنت أمرُّ عليها من آن لآخر ، فهى صاحبة فضل ولا شك ، وكانت دائمًا تبش لمقدمى ، أشعر أنها تجلنى وتحبنى كابن لها ، لم أفكر قط فى أنها من مستوى ثقافى غير مستواى ، إننا نلتقى عند نقطة الإخلاص والشهامة والصدق ، وهذه لا علاقة لها بالعلم والثقافة ، هى حيز أخلاقى

يلتقى فى الجهلاء والمثقفون، والأغنياء والفقراء، والعاصى والطائع، والصالح والطالح.

جلست على مقربة منها، كنت أرشف الشاى فى شرود:

- «هكذا أراك دائمًا شاردًا يا باشمهندس، فيم تفكر؟ أهناك مشكلة أخرى؟؟».

المعلمة بسبوسة امرأة لمّاحة ذات فراسة، فى مقهاها يختلط الحابل بالنابل، وتصب الأخبار، وتروى القصص والحكايات، وتعقد جلسات الصلح، تبرم الاتفاقات إلى جوار ألعاب الورق والشطرنج والدومينو، حيث يتصارع من يخسر ومن يكسب، وعلى مقهاها يجلس الشباب وأرباب المعاشات والحرف الصغيرة، وبعض المقاولين، وكثيرًا ما تغضى الطرف عن بعض المخالفات البسيطة لحرصها على زبائنها. . وهى تعرف المفلس من المكتظ جيبه بالأوراق المالية، ولديها إلمام بأخلاق الرواد وأمزجتهم.

- «لم تخبرنى، ماذا يشغلك؟؟».

قلت بصراحة:

- «ما رأيك فى المعلم على؟؟».

- «رجل ناجح. . ذو شهامة. .».

- «لا أقصد ذلك. .».

- «وما الذى يهمك أنت غير ذلك؟؟» .

قلت :

- «أخلاقه . . » .

- «ألا يعطيك أجرك ويحترمك؟؟» .

- «لكن حياته ألغاز . . لا أفهمه . . » .

قاستنى بنظراتها ، وقالت :

- «الناجح محسود . . » .

قلت :

- «لقد كاد يورطنى» .

- «مستحيل أن يفعل «الحاج على» ذلك» .

- «أؤكد لك . . لقد أرسلنى لأدفع رشوة . . » .

قهقهت قائلة :

- «رشوة؟؟» .

- «أجل . . واعترف . . واعتذر . . » .

- «استمع إلىّ . . أنا أفهم ما يجرى . . مثلاً أنا أدفع للشرطة كل شهر مبلغًا من المال . . لو لم أفعل ذلك لوجدوا ألف سبب وسبب

لإغلاق المقهى . . وأدفع لمفتش الصحة أيضًا، ولو لم أفعل لقدمنى إلى المحاكمة لإهمالى فى المواصفات الصحية . . وأدفع للبلدية، وإذا امتنعت عملوا لى مخالفة إشغال طريق . . وهكذا إما أن أدفع أو أغلق المقهى . . أتسمى ذلك رشوة؟؟».

وكان خلاصة نصيحتها ألا أفكر إلا فى عملى، وأن أدع الخلق للخالق، فهو الذى سيحاسبهم فى النهاية، وأدركت من كلامها أنها تعزو كل فساد فى الرعية للسلطة والسلطان، وأن الإنسان مضطر لأن يأتى بعض التصرفات الخاطئة، عندما تحاصره العراقيل القاسية فى حياته العامة، وهى آراء فى مجملها لا تختلف عما قاله الحاج على محمود، وعما يقوله الكثيرون من رواد مقهاها العتيق.

الدوامة تدور بسرعة هائلة، ومن الصعب أن أنتهى إلى نتيجة منطقية وأنا أعانى الدوار والتردد والحيرة، فلأعمل وأعمل، فقد ينبثق النور قويًا فى داخلى ويضىء لى مواقع الخطا، ويبين لى عن أحسن السبل، ويبقى السؤال الخالد، إما أن أكون مثلهم، وأمضى فى الركب الهائل الذى يملأ شوارع المدينة الكبيرة المعتمة، أو تلاحقنى الضحكات الساخرة، والتعليقات اللاذعة . . كنت آوى كل صباح إلى غرى أعمل بهمة ونشاط، ولا أتركها إلا إذا استدعانى الحاج، أو خرجت لمعاينة موقع من المواقع مع «عم جابر»، ولم يحدث أمر جديد يعكر على صفوى، أو يثير كوامن

لواعجى وأحزانى، ثم أعود إلى مسكنى الصغير فى لهفة إلى بدرية وهدى، عندئذ أشعر بالظل الوارف، والأريج الحلو، وأستمتع بالهدوء. . نسيت أن أقول أننى اشتريت تليفزيونًا؟ لذا كنا نستمع الأخبار، ونرى الأفلام والمسلسلات. . وننصت إلى الأغانى الوطنية. . وإلى خطب الرئيس. . وما أكثر خطب الرئيس!! أما الصحف فقد كنت أستمتع بالكلمات المتقطعة، وصفحة الحوادث، والنعى. . وعندما أطوى الصحيفة تقول زوجتى:

- «لماذا لا تقرأ الأخبار السياسية؟؟ أراك زاهدًا فيها هذه الأيام. .».

فأقول فى ملل:

- «نشرة التليفزيون مثل الصحف. . وأنا لا أحب المبالغات والشتائم. .».

وتعود بدرية لتقول:

- «لا بد أن نعرف العالم الذى نعيش فيه. .».

- «عالمى الآن هو شركة الحاج على محمود. . وهم لا يكتبون فى الصحف شيئًا عن هذا العالم. .».

فى المعتقل كنا نتنسم الأخبار، ونبحث عن قصاصات الصحف فى أكوام القمامة، ويوم أن نحصل على صحيفة، كنا نتداولها فى

لهفة عارمة، ونقرأ كل شيء فيها حتى «مفتاح الإعلانات»، ونحاول أن نفسر كل خبر، وكل خطبة للرئيس تفسيراً يبعث فينا الأمل، وندعى أن ذلك يعنى الإفراج عنا فى أقرب فرصة، وفى السجن يجيد الإنسان صناعة الأوهام، وتفسير الأحلام، أما الآن فلا أكاد أطيق الاستمرار فى قراءة تحليل سياسى خطير، وهل للصحف معنى بدون معارضة؟؟ وما قيمة الصحيفة إذا لم نغص فى أعماق المجتمع، وتخرج إلى النور مشاكله وأمراضه المزمنة؟؟

قالت زوجتى:

- «دعنى من كل هذا.. إن مسكننا فى حاجة إلى تنظيم..».

قلت ضاحكًا:

- «بالله عليك لا تذكرى كلمة «تنظيم».. لقد عقدتنى هذه الكلمة فى تحقيقات المباحث..».

أردفت وهى ترمقنى بإمعان:

- «غرفة الجلوس لا تناسب المقام، ولا بد من شراء غسالة.. إن كيماويات الغسيل تلهب يدى.. انظر..».

قلت ببساطة:

- «إننى أسلمك المرتب شهريًا..».

- «رأيك أولاً..».

- «ألن تغضبى؟».

- «كلا . .».

- «لنؤجل كل شىء . . مَنْ يدرى؟؟ قد نسافر فجأة . .».

ضربت بيمناها على ركبتيها قائلة:

- «يا للسفر!! ألا تكف عن التفكير فيه؟».

- «كلما مرت الأيام والأحداث ازددت يقينًا بأنه هو الحل . .».

أخذت تحدثنى عن الجيران وملاحظاتهم، وعن المركز الاجتماعى الذى يفرض على مهندس مثله أن يبدو فى صورة لائقة، وعن غمزات النسوة الصديقات عندما يزرنها، والحرج البالغ الذى تقع فيه، وحاولت أن أذكرها بالمعانى الإسلامية السامية، التى يجب أن ترتبط بها الزوجة، فلا ترهق زوجها بمطالبها الكثيرة، ولا تحمله فوق ما يطيق، وضرورة البعد عن البذخ والمظاهر والتباهى والانصياع لرغبات وآراء الفارغات من النساء، وبدا الضيق على وجهها، وهى تقول فى تأكيد:

- «إننى أؤمن بكل ما تقول، لكن هذه المطالب بالنسبة لنا ضروريات وليست كماليات . .».

«يبدو أن حياة الفاقة أيام المعتقل قد جعلتنى أبالغ فى الحرص، إن هدى الصغيرة لا يصح أن تتعرض للحرمان والعوذ، وبدرية هى

الأخرى تحتاج لضمانات كافية حتى لا تتعرض مرة أخرى للعنت والحاجة وحمل الهموم، والخروج من عشها الدافئ الطاهر إلى غاية المدينة . . ».

- «حسنًا . . لا مانع يا بدرية . . ».

ثم ملت عليها هامسًا:

- «ولا بأس أن تشترى لك ولهدى بعض الملابس الجديدة استعدادًا للعيد . . ».

- «بل سنشترى لك أولاً . . إن ألوانًا بذلك قد كحلت . . ».

ومضت أيام هادئة، استشعرت فيها الاستقرار والاطمئنان، ولم يغب عنى ما لحق بتصرفاتى من اتزان ورضى، إن نفسى أصبحت أهنأ وأسعد، وعادت البسمة إلى وجهى، كل شىء أمامى يبدو مقبولاً فى أغلب الأحيان، لا أنكر أن نوبات من الضيق تراودنى، لكن ذلك يحدث فى أوقات متباعدة ولفترات قصيرة . . هذا من فضل الله، بيده الأمر، وأنا أحاول جاهدًا أن أنسى . . فإذا بقيت مكروبًا مهمومًا شاعرًا بالذنب، فلسوف أعجز عن أداء المهام الموكولة إلىّ . . وسأورث أسرتى الكثير من المضايقات والمتاعب، فلأروض نفسى على قدر من الرضى برغم الفساد الذى يستشرى، قال لى حضرة الصول ذات يوم وهو يصفعنى فى غيظ: «ماذا تريدون؟؟ الحكومة علمتكم وربتكم، وجعلتكم أفندية محترمين،

لكنكم سفلة تعقرون اليد التى تمد إليكم بالإحسان»، يومها أدركت أننى أمام عبد ذليل، يربط بين الطاعة والعطاء.. كنت أريد يومها أن أقول له ليست لقمة العيش كل شيء، وأن هناك ما هو أثمن وأعظم، وأن الحكومة ليست العاطي الوهاب الرازق، وأننا نريد.. ونريد.. لكنى لم أستطع أن أنطق.. فالاعتراض معناه الإدانة والمحاكمة.. وربما الموت.. يجب أن أصرح بأمانة.. أنا لا أريد أن يصفعنى أحد مرة أخرى، هل معنى ذلك أن أتخلى مبادئ؟؟ لا.. لكنى سأنسحب.. سأهجر العالم وسياسته ومشاكله وهمومه.. وسأعكف على عملى، أتعبد فى محرابه.. وليفعلوا بالعالم ما شاءوا «الزام بيتك.. وأبك على خطيئتك..»

.. الهجرة فى حد ذاتها رفض، لا يمكن أن أذوب فى هذا الطوفان الهادر من التسيب والانحلال.. يا لهذه السلطة!! إنى أتصورها امرأة فاجرة، تلبس الأردية الشفافة، وتضع على وجهها الأصباغ الفاقعة.. وتأتى حركات بذيئة، وتنطق بكلمات فاحشة، وأنا أنظر إليها وأشعر بالغثيان، قلت لنفسى يا عبد القادر الدنيا ليست على هذه الصورة من السوء والرداءة، فالخير موجود، والأمل لم يمت، وما يجرى لهو لحكمة يعلمها الله، ولله فى خلقه شؤون.. قلت لنفسى صبرًا يا عبد القادر، فقد تتغير الأحوال، وتتحسن الأوضاع، ويعود الطائر المهاجر إلى عشه..

قالت زوجتى، وأنا أدلف إلى الداخل:

- «المباحث يريدونك أن تذهب إليهم غداً فى الساعة السابعة مساء . . إنهم يؤكدون على ضرورة الحضور . . » .

قلت فى غضب :

- «وإذا لم أذهب؟؟» .

- «مستحيل . . أنت تعرف . . » .

كان جسدى يشتعل من الغضب ، ماذا يريدون؟؟ إن مجرد رؤيتهم أو التفكير فيهم يشعل النار فى قلبى ، وأنا أحلم بالهجرة الداخلية . . النفسية ، بعد أن فشلت فى الهجرة الخارجية ، إن ذلك الحلم المتواضع تطارده الأبالسة هو الآخر ، أى حصار بشع تعيش فى أتونه!؟

وحاولت أن أنام . .

قالت بدرية :

- «يجب أن تتغير نظراتك لمثل هذه الأمور . . فتعتبرها أمراً عاديًا لا فكاك منه . . ولترض بقضاء الله . . » .

بدت لى كلماتها فى منتهى التعقل والحكمة . . والشجاعة أيضًا . . غمغمت و أنا أحكم الغطاء فوق جسدى ، وأغمض عينى :

- «هذا عين الحكمة . . » .

●●●



جلست طويلاً فى انتظار المفتش، الضحايا يدخلون ويخرجون شاحبى الوجوه، كل إنسان عالم وحده، يموج بآلاف المشاعر والأفكار، لقد جربت ذلك كثيراً، ما أقسى الانتظار، وما أصعب الجلوس بين يدى سيادة المفتش للاستجواب، اتهام دائم . . فى أى وقت يستدعى المشتبه فى أمره ويتعرض للسؤال والخشونة فى المعاملة، وتتلفت حولك باحثًا عمن يأخذ بيدك فلا تجد، الجميع يهربون منك حتى معارفك وأصدقائك، كانت جدتى رحمها الله تقول لى : فى يوم الحساب كل إنسان يقول «نفسى . . نفسى»، قلت للمخبر :

- «متى سأدخل؟؟» .

قال بجفاف وغلظة :

- «لا تسأل» .

- «خفت أن تنسوا . . » .

- «وأنت، أتعلمنا ماذا نفعل؟؟».

كان لا بد أن أصمت وأنتظر، لكنى أبحث جادًا عن سبب معقول لاستدعائى، فلا أجد سوى موضوع السفر الميئوس منه، وأحاول البحث عن أسباب أخرى فلا أجد، لقد جربت كثيرًا، أحيانًا كانوا يستدعوننى بلا سبب، وأدخل فأواجه باستفسارات تافهة لا معنى لها، تكون الإجابة معروفة سلفًا، وأكاد أحيانًا أفقد صوابى وأثور، لكنى تعلمت الصبر، وكبح النفس، إن أى اعتراض أو احتجاج معناه معروف، فالمعتقل ما زال مفتوحًا، يخرج الناس منه ويدخلون إليه فى كل وقت، ولا يستطيع مظلوم أن يلجأ للقضاء، أو يستنجد بجهة من الجهات، فرجال الأمن كما هو معروف لهم الكلمة العليا ويفعلون ما يؤمرون، وما يشاءون. . جاء إلى المخبر، وقد قاربت الساعة العاشرة مساء، وقال:

- «أنت يا أستاذ. . اذهب إلى بيتك، وعد غدًا. .».

- «لماذا؟؟».

- «البك مشغول. . مفهوم؟؟».

وتركنى ومضى، تلفت حولى، الناس يروحون ويجيئون، ولا يهتم إنسان بآخر، نهضت من فوق المقعد الخشبى، ويممت وجهى شطر الدرج، وعدت من حيث أتيت، كان مقهى المعلمة بسبوسة كعادته فى مثل هذا الوقت مكتظًا بالرواد، والمذياع مفتوح على

آخره، ونشرة أخبار صوت العرب يتردد صداه فى الساحة الواسعة، ولا أحد يسمع، إن الحماس فى لعب النرد والورق والدومينو قد صرف الجميع عن متابعة الأخبار، الناس يبحثون عن شيء يندمجون فيه وقت الفراغ، وينسون الدنيا وما فيها، إنهم مثلى، الفرق بينى وبينهم إننى أنغمس فى العمل، وأحيانًا أحلم بالسفر . . أو أهيم فى عالم من الأمان والحرية والعدالة حيث يستطيع الإنسان أن يعبر عن وجهة نظره دون خوف، وأن يثور لكبريائه وكرامته، وأن يتحرر من أسر القهر والحاجة وكل أنواع السلطات المستغلة . . أحلم «بهايد بارك» فى ميدان التحرير على غرار ما يحدث فى إنجلترا، وبالصحافة الحرة كما يحدث فى بلد فقير مثلنا كالهند، أو فى دولة عربية كلبنان مأوى للاجئين السياسيين، أو حتى كإسرائيل التى يسمح فيها للفلسطينيين بالقيام بالمظاهرات والصحف الخاصة بهم . . مجرد أحلام، ومن فضل الله أن الأحلام لا رقيب عليها، ولا تكلف مالاً أو ضرائب، إن العالم الظاهرى الذى أراه حولى ممتلئ بالزيف والكذب، أما العالم الحقيقى الصادق فهو عالم الداخل . . أشعر أن المدينة الفاضلة موجودة فى أعماقى، وحياتى الحقيقية المنطلقة الحرة فى الأحلام . . وأحيانًا قليلة فى شقتى الصغيرة . . لكنى قد أتردد أن أصرح بما يدور فى نفسى بعض الأوقات أمام زوجتى، لا لأنى أشك فيها . . حاشا لله ولكنى أقول من يدرى؟؟ قد يأتى يوم يسوقونها هى

الأخرى إلى المعتقل، ثم يضغطون عليها، وتحت آلام التعذيب والإرهاب قد تتفوه ببعض كلمات آرائى، فتكون الطامة الكبرى، هذا احتمال بعيد.. ولكنه قد يحدث.. بل حدث فعلاً فى عام ١٩٦٥ عندما ساقوا بعض النساء إلى معتقل القناطر الخيرية.. إن إنسانيتى تتضاءل رويدًا رويدًا، والعالم الواسع من حولى يضيق من وقت لآخر، فهل سيأتى ذلك اليوم الذى لا أجد فيه أحدًا يسامرنى بحرية وصدق إلا نفسى؟؟ أى جحيم نعيش فيه!! لقد أدركت مع مرور الوقت أن الإنسان لا تكتمل إنسانيته إلا إذا تكلم.. واعترض.. وغضب.. واحتج بحرية، ويبدو أن هذه الأشياء كلها نشاطات حيوية لا غنى عنها، وتجاهلها تجعلها تضمر أو تتشوه، ومن ثم أدخل فى نطاق الخلل.. أعنى المرض.. المرض النفسى، وهو أقسى ألف مرة من الداء العضوى.. جلست كعادتى فى مقعد قريب من «المعلمة بسبوسة»، كانت تحصى بعض قطع العملة الصغيرة، وبعض الأوراق المالية، إنها حصيلتها اليومية، قالت وهى تواصل العد:

- «سأل عنك الحاج على».

- «أيريد شيئًا عاجلاً».

- «كان متلهفًا عليك..».

- «جعله الله خيرًا..».

لقد أصبحت عرضة للقلق لأدهى الأسباب، إن مجرد سؤال الحاج على عنى جعلنى أبحث عن سبب، كذلك الذى حدث تمامًا وأنا فى انتظار المفتش، لا أستطيع أن أصرف نفسى عن التفكير فى كل صغيرة وكبيرة، والكارثة أننى دائمًا أصنع للتفكير فى الاحتمالات السيئة بالذات، ترى هل وشى بى أحد عنده؟؟ هل حدث تغير فى موقفه منى بعد اعتراضى على أسلوبه فى الرشوة، فخاف من وجودى على كيانه ونشاطه؟؟ قلت «للمعلم بسبوسة»:

- «أتعرفين عنوان بينه؟؟».

قالت ضاحكة وهى تضع صرة النقود فى صدرها:

- أى بيت تقصد؟؟ إن له ثلاثة بيوت.. عليك أن تستأجر سيارة، وتنتقل من مصر الجديدة إلى شبرا، ومن شبرا إلى الجيزة..».

علقت مستغربًا:

- «ثلاثة؟؟».

- «نعم.. كل زوجة منهن كالقمر.. لكنه لم ينجب إلا البنات..»، لعل المعلمة أدركت ما انتابنى من قلق، لذا سمعتها تقول:

- «الحاج يحبك..».

- «أرجو أن يدوم ذلك . . » .

قالت وهى تأخذ الشاى من الصبى وتضعه أمامى :

- «العمل عمل ، وأنت محبوب ما دمت نافعًا . . والطيبون أمثالك ندرة فى هذا الزمن . . » .

انبعث صياح استغاثة ، أعقبته ضجة ، انتفضت واقفًا والدهشة تعلو وجهى ، جذبتنى المعلمة من كمى قائلة :

- «اجلس . . إنه أمر مألوف . . من هنا لا يعرف «صبيحة ومدبولى»؟؟ كل مساء يعود سكران ، إنه ينفق معظم ما يحصله من أجره على المزاج . . ويترك زوجه وأولاده فى مهب الريح . . » .

-«ماذا يعمل؟؟» .

- «سائق تاكسى . . ودائمًا يغنى : «الدنيا سيجارة وكأس ، وكثيرًا ما يأخذه الشرطى للقسم . . ولا يرتدع . . » .

وفد علينا رجل معمم بشال أبيض ، مفتول الشاربين :

- «مساء الخير يا ست المعلمين» .

ردت فى اقتضاب وحزم :

- «ابعد عن هنا . . واختر لك مكانًا آخر . . » .

- «سبحان الله ، هل أجرمنا . . أنا أسأل عن الحاج على محمود . . » .

- «انصرف منذ مدة طويلة . . » .

قلت فى نفسى قد يكون هذا الرجل مقاول أنفار ، استدعى الصبى إلى داخل الغرفة التى يعد فيها الشاى والقهوة والنرجيلة ، انتهزت الفرصة ، وقلت للرجل :

- «أنا موظف لدى الحاج ، أيمكننى أن أقدم أية خدمة؟» .

قاسنى الرجل بنظراته ثم تعلثم ، كنت أنظر إليه ، قال بعد فترة تفكير قصيرة :

- «أتعرف أين هو؟؟» .

هرول الرجل مبتعداً ، وعندما عادت المعلمة غمغمت معلقة فى غضب :

- «هل ذهب؟ . . » .

- «نعم . . » .

- «إلى جهنم . . » .

لم تتركنى حائراً ، أخبرتنى أنه تاجر مخدرات ، وأنها تشعر بالقلق إذا قدم أحدهم إلى مقهاها ، لكن ما صلته بالحاج؟؟ حاولت أن أستحثها على الحديث ، لكنها تمتمت : «إن الله حليم ستار» ، ما هذه الطلاسم؟؟ قد يكون من المتوقع أن يرتبط الحاج بموزعى الحديد والإسمنت ومقاولى الأنفار ، إما أن يكون على علاقة بتاجر

مخدرات، فهذا ما لا يمكن فهمه، لم يغب عن المعلمة الذكية تساؤلاتي المكتومة، والتى ربما يبدو دليلها فى عينى، همست:

- «قد يريد بناء بيت».

أورثتنى حياتى السقيمة الكثير من الشكوك، إن غلبة الفساد تخنق نبرات الثقة والأمل، أشياء جميلة تزوى فى قلبى، تذبل الزهور، تجف الينابيع، وتجف الأوراق الخضراء وتشجب، الخريف الحزين يغطى كل شىء..

- «أقسمت عليك بالله يا معلمة أن تخبرينى بالحقيقة».

قالت المعلمة التى صقلتها الأيام:

- «ستتألم أكثر..».

- «ليكن، إن معرفة الحقيقة لها ثمن».

- «قد يكون غاليًا جدًا..».

- «لكنها تريحنى وتسعدنى».

تنهدت فى حسرة، وقالت:

- «الرجل غريب الأطوار.. إنه طيب جدًا وكريم.. غير أن هذا لا يمنع من أنه يجلس وسط «الغرزة» يدخن الحشيشة حتى الفجر، ثم ينهض ليصلى فى أول جماعة.. وبعدها يعود إلى بيت من بيوته، ولا يصحو من نومه إلا قبيل الظهر فى غالب الأيام..».

قلت وأنا أرفع يدى حزينًا:

- «كفى..».

تمتمت:

- «ما كان أغناك وأغنانى عن الخوض فى هذا.. لقد أرغمتنى على مخالفة مألوف عادتى، وجعلتنى أفشى سرًا لكن خير أن تعرفه منى.. ثم ما دخلك أنت فى أمور كهذه.. نحن لن نشكل الناس على هوانا.. كل إنسان له خصوصياته.. تكفى علاقة العمل..».

وأغوص فى أعماق الحياة، وأظل أدقق النظر، وأرهف السمع، وكل يوم يتكشف لى جديد، لكنى أشعر أن مناعتى للأحزان تقوى يومًا عن يوم، وأصبح فى الإمكان أن أتقبل الصدمات بشىء غير قليل من التسليم، وماذا فى إمكانى أن أفعل؟ يا لها من فيلسوفة تلك المعلمة البسيطة التى لا تقرأ ولا تكتب، «نحن لن نشكل الناس على هوانا».. أجل.. حكم بالغة، وبالتالى فلا بد من أن نتعلم فن معايشة الخلق بكل ما فيهم من نقائص وعيوب..

مشيت فى الطريق وقد جاوزت الساعة الحادية عشرة مساء، وأمام بيت صبيحة ومدبولى سمعت ضحكاتهما، كانت تتدفق عبر النافذة المضاءة إلى الشارع، كما تدفقت صيحاتهما منذ ساعة.. دنيا.



الحاج على - كما قلت - رجل ذكى، يعرف كيف يحقق أهدافه بخفة وهدوء، ويستغل مختلف الوسائل لبلوغ غاياته، ونحن نعرف القليل عنه؛ لأنه كتوم، ويتصرف ببساطة وتلقائية، ومهما كانت خطورة الأساليب التى يتبعها، إلا أنه يشعرك دائمًا بأن الأمر طبيعى لا يثير شبهة، ولا يبعث على المخاوف، وهذا فى حد ذاته موهبة نادرة..

استقبلنى قائلاً:

- «مهمتك هذه المرة فى حدود إمكاناتك العظيمة، ولن تكلفك جهدًا أو مشقة، إنها شيء تفعله كل يوم..».

- «أنا طوع أمرك يا حاج..».

نظر إلىّ باسمًا، وقال:

- «وفيها مكافأة تشجيعية كبيرة.. مائة جنيه».

خفق قلبى للرقم الكبير، إن المكافأة عادة فى حدود عشرة جنيهات أو أكثر قليلاً، أما أن تكون مائة، فهذا أمر يختلف، واستطاع الحاج أن يشد انتباهى، ويبعث فىّ الحماسة . .

- «إنه واجبى، ومن المفروض أن أؤديه بدون مكافأة . . ».

وأخذ يحدثنى عن تصميم فيلا على أحدث طراز، تحيط بها حديقة، وبعض المنشآت الصغيرة الأخرى، وأفاض فى الحديث عن صاحبة الفيلا، فهى فنانة مرموقة، وذات علاقات اجتماعية مهمة، وإرضاء «صافى»- وهذا هو اسمها- صفقة رابحة وذات عائد مجزٍ جدًا، هكذا كان يتكلم الحاج . . قلت:

- «إنها معروفة على نطاق واسع . . ».

قال الحاج وهو يضيق عينيه وينظر إلى وجهى فى اهتمام:

- «أجل معروفة كفنانة . . لكن ما خفى كان أعظم . . ».

لم أفهم ما يرمى إليه، وأنا أثق فى أحكام الحاج، إنه لا يلقى الرأى جزافًا، فهو يحسب حساب كل كلمة يقولها، كعادته فى إجراء حساباته عندما يقدم على عملية من العلميات الكبيرة، كما إنى أعرف درجات اهتمامه بالنسبة لمختلف الأمور . . قال الحاج:

- «إن إشارة من إصعبها تقيم الدنيا وتقعدها».

- «ألهذا الحد؟؟ . . ».

- «وأكثر . . » .

ثم أمسك بيدى فى رجاء ، وقال :

- «إذا رضيت «صافى» عنا فقد حلت جميع مشاكلنا ، أتفهم يا باشمهندس؟؟ إننى أعول كثيرًا على هذه العلاقة التى كنت أحلم بها . . وأخطط لها من قديم . . » .

ثم صمت مفكرًا لبضع لحظات ، وعاد يقول :

- «هل تصدق؟؟ لقد سمعت عنك ، وطلبتك أنت بالذات للتصميم . . بل والإشراف . . ويجب أن تتأكد أننى سوف أضع تحت يديك كل الإمكانيات المادية والعمالية والوقت حسبما تريد . . لن تكون بعد الآن مرتبطًا بأية مواعيد فى الشركة ، ولن تتحمل أية مسئوليات أخرى . . ألك أية مطالب أخرى؟؟ .

تذكرت مضايقات المباحث العامة ، والاستدعاءات المتكررة ، والجلوس بين أيديهم ساعات ، يسألون وأجيب ، فى أمور ملفقة مفتعلة لا قيمة لها ، هذا هو شاغلى الأكبر الذى يؤرق علىّ هناء حياتى وصفائها ، لكن هذا شىء بينى وبين نفسى أتجرعه صامتًا صابرًا منذ زمن بعيد ، حتى كدت آلفه . .

قطع الحاج حبل أفكارى قائلاً :

- «سنذهب إليها الليلة . . » .

قلت فى شىء من الحيرة :

- «الليلة؟؟».

- «نعم. . تستطيع أن تؤجل أو تلغى أى ارتباط آخر، فهذا أهم بكثير. . ».

- «لكنى مرتبط يا حاج. . ويصعب الفكاك. . ».

- «لن يعوقك إلا شيء واحد. . المرض. . وأنت والحمد لله فى كامل الصحة. . ».

قرأ على وجهى ما يعتمل فى داخلى من حيرة، وسمعنى أقول:

- «نعم. . المرض. . ومعه شىء آخر».

- «ما هو؟؟».

- «المباحث العامة. . ».

- «مشاكل سياسية؟؟».

- «نعم. . لكنى مظلوم. . ».

- «لم أكن أعرف أنك على هذه الدرجة من الخطورة. . ».

قاطعته قائلاً:

- «أعرف أن الأمر قد يبدو مفاجأة مزعجة بالنسبة لك، لكن لا حيلة لى فيه، وتستطيع أن تتخذ قرارك بشأنى بعد أن صرحت لك. . ».

وابتسم الرجل قائلاً:

- «إخوان مسلمون؟؟».

- «نعم..».

- «هذا يجعلنى أقوى ثقة فيك من قبل.. أنت رجل تخاف الله وترفض الحرام، وتأبى أن تغش..».

ثم هز رأسه مفكرًا، واستطرد:

- «سوف نبحث عن حل..».

ذهبت إلى الحى الهادئ فى مصر الجديدة.. كانت الفيلا التى تسكنها «صافى» تبدو كقصر فخم رائع الأثاث، بها قدر من التحف الثمينة التى لا تقدر بمال، والأرض مفروش ببسط عجمية تبعث على الانبهار، إن هذا البذخ يزيد كثيرًا عما توقعته، فهى فنانة كبيرة لكنها ليست فى القمة، ولكن ليس من رأى كمن سمع، جلست أنا والحاج فى قاعة الانتظار الجميلة التى تتدلى فى وسطها الثريات الثمينة المستوردة، وقلت للحاج كى أبدد ما حولى من رهبة:

- «وكيف يمكننا أن نصمم أعظم مما نراه؟؟».

قال الحاج فى ثقة:

- «نستطيع.. بالتأكيد.. أنا أعرف مواهبك.. وما تراه أمامك الآن أمر آخر.. الهيكل غير الحشو.. وأنت مبهور بالحشو..

أليس كـذلك!! تسـتطيع أن تلعب بمهـارة، هى فنانة قـديرة فى التمثيل، وأرجو منك أن تكون أنت الآخر فنانًا عظيمًا فى التصميم والتنفيذ أيضًا..».

وابتسم الحاج فى سعادة، كان متأنقًا أكثر من أى وقت مضى، ويمسك بعصا معوجة، ذات مقبض فضى، ومن الأبنوس الأسود اللامع، وبمسبحة ثمينة ذات مئذنة وشواهد ذهبية، وكان يعبث بحباتها فى عصبية، والغريب أننى كنت هادئ الأعصاب على غير العادة، لا أدرى لماذا!! سبحان مقلب القلوب والأبصار، ولم يطل انتظارنا، فقد قدمت «صافى» متألقة الوجه كملكة.. ترفل فى ملابسها الحريرية الشفافة، وحليها ومجوهراتها، كانت امرأة جميلة.. فاتنة آسرة.. تختلف عما أراه على شاشة السينما والتليفزيون والصحف والمجلات.. كان أريجها يملأ المكان ويطرح بعيدًا ما عداه، وقابلها الحاج بحركات رجل مدرب قدير، كان يميل وينحنى ببراعة، ويشير بيديه فى حركات متقنة، ويتدفق من فمه سيل من الكلمات المنتقاة المناسبة، يشيد فيها بفنها وجمالها وذوقها وقوة شخصيتها وحب الجمهور لها، ورمته بنظرة امتنان واضحة، وأشارت بالجلوس فجلسنا، وبدا الارتياح على وجه الحاج على؛ لأنه شعر بأنه قد أدى دوره فى البداية على الوجه الأكمل.. إنه راض عن نفسه تمامًا على ما يبدو، وهذا مدخل طيب.. وحاولت بدورى أن أقول شيئًا لكننى لم أستطع كانت الكلمات تذوب على

شفتى، أو تتراجع للوراء، أو تتجمد كرموز حجرية. . وأنا الخطيب البارع فى المناسبات السياسية والدينية. .

- «سمعت أنك مهندس ممتاز. .».

خفضت رأسى حرجًا وخجلاً، وتولى الحاج الرد عنى:

- «هو ذاك يا سيدتى. .».

- «والكتاب من عنوانه يا حاج».

ومدت يدها، والتقطت كتالوجًا من فوق متضدة مطعمة بالعاج والصدف وهى تقول:

- «كنت فى باريس الصيف الماضى وأعجبتنى فيلا جميلة بالفعل. . إنها قريبة الشبه بما سأعرض عليك فى هذا الكتالوج. .».

وأخذت تتصفح الكتالوج، ثم قالت دون أن ترفع عينيها عن الصورة: «انظر. .».

بقيت فى مكانى، لكن الحاج لكزنى خفية، وفتح عينيه على اتساعهما، وأشار بيده كى أذهب إليها، واقتربت فى خطوات حيية هادئة، وانحنيت قرب الصورة. . كانت الفيلا جميلة فعلاً، وذات ألوان بهيجة، أخذت أتملى الصورة بإمعان، وجدتنى أقول:

- «رائعة . . لكنها تحتاج إلى تعديل جوهرى حتى تتناسب مع أذواقنا الشرقية . . » .

وكم كانت دهشتى عندما سمعتها تقول :

- «بالضبط . . هذا ما أردت أن أقوله . . أنا أحب الموسيقى الشرقية بجنون ، وأعتبر المسكن والأثاث ألحانًا متناسقة متناغمة ، وأجمل الأدوار لدى هى التى أقوم فيها بتمثيل شخصية تجمع بين الأصالة والحديث . . وهذا هو موقفى الفكرى أيضًا . . » .

ذهلت لما أسمعه ، هل الممثلات لهن موقف فكرى؟؟ منذ متى؟؟ كنت أحسبهم فارغات ، لا مجال أمامهن سوى اللهو السهر ، والتمثيل وجمع المال ، وانتهاب الملذات . . إن صافى تتحدث عن الأصالة والتحديث ، مستحيل أن تعى أبعاد هذه الكلمات الضخمة ، يبدو أنها حفظتها دون فهم ، وهى ترددها الآ ن كالبغبغاء . . ما علينا . . انتظرت أن يعلق الحاج ، لكن مثل هذه الأمور تبدو فوق مستواه ، إن مهمته تتركز فى حسن العرض والدعاية ، ثم تبدأ عند الطوب والإسمنت ، أما المواقف الفكرية فهذا موضوع لا يهمه ، بل لايعرفه . .

قلت وأنا أتمعن فى كلماتها :

- «الجمع بين الأصالة والتحديث يوجد مولودًا متميزًا خاصًا لا هو هذا ولا ذاك . . بمعنى ألا تنطبق عليه صفات هذا أو ذاك ؛ لأن له ملامحه التى تخصه وحده . . » .

ابتسمت ونظرت إلىّ، رأيت فى عينيها فرجة متألقة، وقالت :

- «أنت فنان فعلاً، ويبدو أننا سنكون أصدقاء . . ».

دق قلبى، وجف ريقى، وانتصب الحاج على واقفًا كمهرج الزفة، وقال فى سعادة بالغة :

- «ألم أقل لك يا ست الكل؟؟الباشمهندس عبد القادر جوهرة . . أى والله جوهرة . . مثقف وفنان وعبقرى . . ؟ . ».

لم تلتفت إليه، وعادت إلىّ قائلة :

- «مأساة الفن فى بلدنا أنه تحول إلى تجارة . . حتى الذين يزعمون أنه فن هادف ما هو إلا صراخ بشعارات سياسية واجتماعية زاعقة . . إنه تجارة أيضًا، لكنه من سوق السلطة . . ».

صدمت بما تقول، إنه كلام خطير تحاسب عليه، لو سمعه سيادة المفتش فى المباحث العامة لساقها إلى سجن القناطر، ولو أنى قلت هذا الكلام لقضيت عشر سنوات فى السجن على الأقل، ما الذى يجرى فى بلدنا؟ هناك من يحاسبون على الهمسة يهمسونها، وهناك من يعبرون عن وجهة نظرهم بمنتهى الحرية دون أن يصيبهم أذى، فما السر فى ذلك؟؟.

- «ما رأيك يا باشمهندس فيما أقول؟؟».

تدخل الحاج متطوعًا وأردف :

- «مضبوط . . تمام . . يا ست الكل . . كل كلمة تخرج منك مثل الشهد . . سبحان العاطى الوهاب . . ».

نظرت إلىّ نظرة ذات معنى ، كنت حائرًا فى هذا الوقت ، أيمكن أن تكون الفنانة القديرة المثقفة فخًا منصوبًا لى؟ لا . . لا . . ما هذا الظن السيئ الذى لا يليق؟ وعلى الرغم من حرصى البالغ ، إلا أننى فى بعض الأحيان ، تنتابنى لوثة شجاعة فأصرح بما فى نفسى دون تقدير لما قد يترتب على هذا الموقف من مخاطر ، ووجدتنى أقول :

- «فعلاً . . التجارة بالشعارات أفسدت الفن والفكر . . ».

وضحكت وهى تقول :

- «تعجبنى . . أنا أحب الصراحة ، هل شاهدت الفيلم التليفزيونى الذى قمت ببطولته؟ اسمه «الجنة الموعودة» . . ».

حاولت أن أتذكر ، إننى لم أر شيئًا كهذا ، ربما عرضوه قبل أن أشترى التليفزيون ، وربما عرضوه أثناء اعتقالى ، وقبل أن أرد سمعت الحاج يقول :

- «يا سلام يا ست . . روعة . . أى والله العظيم روعة . . كل من رأوه شهدوا بذلك . . أنت بالذات كنت مدهشة . . هذا هو الفن . . ».

قلت فى هدوء :

- «أما أنا فلم يسعدنى الحظ . . » .

ذهلت إذ سمعتها تقول :

- «عندى نسخة منه . . سوف تشاهدونه الآن ، لن يزيد عرضه عن الساعة . . أريد أن أسمع رأى المهندس . . ولم تنتظر ، بل قامت إلى الداخل ، ربما لتصدر أوامرها بإعداد الترتيبات للعرض . . » .

قلت للحاج على :

- «لا بد أن نخرج قبل السابعة مساء . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «أنت تعرف . . لا يمكن تأجيل موعدى مع المباحث العامة . . » .

قال الحاج فى عصبية :

- «قلت لك ألف مرة لا تخف . . » .

- «هذا يخصنى وأنا أعرف مسئوليتى . . » .

كنت قلقًا ، وكنت أفكر جديًا فى الاعتذار عن مشاهدة العرض ، إننى لا أريد أن ألقى بنفسى فى مشاكل أنا فى غنى عنها ، إن تأخرى عن الذهاب إلى سيادة المفتش قد يتخذ ذريعة لإعادة اعتقالى والتنكيل بى ، هل من المعقول أن أجعل المجاملات فوق أمر حيوى خطير كهذا؟؟ .

سمعناها تقول :

- «تفضلوا . . » .

قلت فى ارتباك :

- «إن لدى ارتباطًا لا يمكن تأجيله . . هل تسمح لى الفنانة الكبيرة؟؟» .

هذا المجنون المدعو «الحاج على» ألقى بجملة انفجرت فى سمعى لم أكن أتوقعها . .

- «يا ست الكل . . هذا الرجل مظلوم . . والمباحث تطارده . . ولا بد أن يذهب إليهم . . لقد استدعوه بالأمس . . » .

عادت تنظر إلىّ بتفحص ، وكأنها ترانى لأول مرة ، ووقفت جامدة برهة ثم قالت :

- «سياسى؟» .

رد الحاج على :

- «نعم . . » .

عادت تقول :

- «شيوعى؟؟ مستحيل ، إنهم لا يطاردون الشيوعيين الآن . . » .

ثم التفتت مرة أخرى نحوى، وقالت:

- «لا بد أنك من الإخوان».

لم أجب.. فهمت وهزت رأسها.. وسألتنى عن اسم المفتش الذى استدعانى، ثم قصدت التليفون لتوها، وسمعتها تكلمه، كانت كلماتها تخرج بثقة وبلهجة الآمر، يا إلهى!! ما هذا الذى يجرى؟ كان التليفون ما زال على أذنها.. سمعتها تضحك وتقول:

- «لا تخف على.. أنا أيضًا عندى أجهزة سرية..».

ثم عادت تقهقه حتى احتقن وجهها ودمعت عيناها، واقتربت منى قائلة:

- «تستطيع أن ترى العرض باطمئنان.. ويمكنك الذهاب بعد ذلك فى أى يوم تشاء..».

وذهبنا إلى مجلس وثير هادئ، وكانت أثناء انتظارنا تحدثنى كيف أنها قرأت قصة قصيرة لأديب ناشئ مغمور، وأعجبتها القصة فكرة وشخصيات، فكلفت كاتب سيناريو وحوار مشهور بإعدادها كفيلم تليفزيونى، وقالت إنها عادة تختار موضوعاتها التمثيلية بنفسها، وأنها ترفض الكثير من المواد الأدبية التافهة، وأنها مهتمة بالنقد منذ أن كانت طالبة فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية،

وأن لها رأيها فى الندوات الفنية، وتعبر عن وجهة نظرها بصراحة مطلقة، ولا يهمها من يغضب أو يسر . .

وأعجبنى الفيلم حقيقة، وكان أداؤها فذًا فى إطار الفكرة المطروحة للمعالجة، أما الحاج فلم يصبر حتى النهاية كى يعبر عن رضاه، بل ظل طوال العرض يصفق، ويصرخ الله أكبر . . ما هذه العظمة يا ست الكل، أنت صحيح كوكب الشرق . . صافى كوكب الشرق . . انظرى كيف يأتى الكلام منسجمًا موزونًا! صافى كوكب الشرق . . كانت تبتسم وتقول: «الحاج مثل توابل الطعام . . إننى أحب تشجيعه . . الفنان فيه قدر من الأنانية والغرور، أعرف ذلك، وأعرف أنه نقص، لكنى أحب ذلك . . ما رأيك يا باشمهندس؟؟

قلت:

- «هائل . . ».

كانت رأسى تدور، أتساءل بينى وبين نفسى: من أنت أيتها المرأة؟؟ إن أفكارك وفنك يحيرانى، والأعجب من ذلك نفوذك الغريب، كلما مرت الأيام، وفهمت أشياء جديدة، أدرك فى النهاية دائمًا إننى لا أعرف إلا القليل . . أو أقل من القليل.

لعلها لم تكتف بالكلمة التى قلتها، نظرت إلى وجهها النضر، فأدركت أنها تريد المزيد:

- «فى الواقع إننى- كمشاهد- استمتعت بعمل فنى متكامل تأليفًا وإخراجًا وتمثيلاً . . لولا بعض المبالغات فى التعبير عن الشخصيات القروية، إنهم لا يتكلمون بهذه الطريقة المبالغ فيها، كما أن حوار بعض الشخصيات كان أعلى من مستواها . . أما أنت . .

وسكت . .

كان الحاج يلكزنى برفق، ويبدو أنها لمحته، وهو يفعل ذلك فابتسمت، وقالت :

- «دعه يا حاج . . إنه يتكلم الواقع . . » .

ثم رأيتها تميل نحوى قائلة :

- «وأنا؟ قل . . لا تجاملنى . . » .

- «لقد أديت الدور بكفاءة عالية . . » .

هاج الحاج وماج وأردف :

- «أية كفاءة يا باشمهندس؟ قل بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى . . » .

وضحكت «صافى» فى سعادة . . وأفلتت منى كلمات، ربما لسذاجتى :

- «لكنى لاحظت شيئًا . . » .

انتبهت ، وقالت فى اهتمام :

- «قل بأمانة . . » .

قلت متهيبًا :

- «حتى فى لحظات النصر والسعادة ، كنت أرى فى عينيك أطيافًا من حزن قديم . . » .

وفاجأتنى بمد يدها مصافحة ، وأمسكت بيدى بين يديها فى حماسة غريبة وهى تقول :

- «صدقت . . أنت أول من أدرك ذلك . . »

ارتجفت يدى بين يديها ، إنها يد من نوع آخر ، وسحبت يدى بهدوء ، ووثبت فرحة لتقدم لنا مشروبًا بنفسها ، وانتهز الحاج هذه الفرصة وهمس فى أذنى قائلاً :

- «لماذا هذا التهيب والارتجاف؟؟ هل تخاف أن ينتقض وضوءك؟؟» .

وضحك الحاج ضحكات مكتومة ، والحقيقة أننى شاركته الضحك .

اعتذرت عن الشرب ، فقالت :

- «بيرة ممتازة مستوردة».

قلت: «لا أشربها..».

قالت: «هل هى حرام؟؟».

- «نعم..».

- «لأول مرة أسمع هذا الكلام..».

- «فيها نسبة من الكحول..».

- «لكنها قليلة..».

- «... كثيرة وقليلة حرام..».

اختطف الحاج واحدة وأنا فى دهشة، وأخذ يشرب فى استمتاع، ويقول: «هو الغفور الرحيم..»، احترمت إرادتى، ولكنها أخذت تشرب هى والحاج، واتفقنا على لقاء آخر فى وقت قريب كى نرى الموقع، وتشرح لى بعض التفاصيل التى ترغب فيها.

قال لى الحاج بعد أن خرجنا:

- «طبيعة عملى تقتضى أن أجارى الجو..».

ولما لم أجب على تعليقه، عاد يقول:

- «إن المكان الذى جلسنا فيه، هو ملتقى عِلية القوم فى البلد..».

قلت مستفسراً :

- «مَنْ تقصد؟؟» .

قال وهو يدلف إلى السيارة :

- «خل الطريق مستور وحياة والدك . . » .

وعدت إلى منزلى فى وقت متأخر من الليل . .

كنت أشعر أن رأسى ملتهبة ، وأن النوم بعيد عنى بُعد المشرقين والمغربين . .

●●●



تضاعف مرتبى، لم أكن أتوقع هذا الدخل الذى ينمو باطراد شهرًا بعد شهر، وأمر كهذا لا يمكن أن يظل سرًا فى الشركة، وقد أثار حفيظة زملائى المهندسين، وبعضهم يعمل منذ سنوات، ولا يحصلون إلا على علاوات طفيفة، أما أنا -فكما كانوا يرددون- انطلق بسرعة الصاروخ، والعاملون فى الأقسام الإدارية والمالية التفتوا إلى هذه الظاهرة باستغراب، وأخذ الجميع هنا وهناك يتناولون هذه الظاهرة الفريدة بالدراسة والتحليل، وأخبرنى «عم جابر» السائق الخصوصى لصاحب الشركة، بأنهم يرجحون أنى قريب لإحدى الشخصيات المهمة فى المجتمع، بل حاول بعضهم أن يضع اسمًا لهذه الشخصية، وزعم آخرون أننى قريب للحاج على، وأنى مرشح للزواج من إحدى بناته، لكن أحدًا منهم لم يفكر فى كفاءتى وخبرتى، ويعزى إليها الحوافز المادية التى أحصل عليها؛ لأن الكفاءات تعتبر فى ذيل قائمة الأسباب التى تعلو بالموظف أو تهبط به، حتى زوجتى هى الأخرى قالت:

- «يخيل إلىّ أن الحاج لا يمكن أن يفعل ذلك لوجه الله، إنه لا شك يدفع ثمن شىء يريده، لكن ما هو هذا الشىء؟؟».

أما أنا فقد كنت واثقًا أن الحاج يزن الأمور بميزان دقيق، إنه يدفع أكثر كلما توقع عائدًا أكبر، إنه كما يقال دائمًا «ابن سوق» يعرف من أين تؤكل الكتف، ويضرب ضربته دائمًا فى الصميم، أحيانًا يقدم خدماته فى سخاء وكرم بالمجان، وأحيانًا أخرى لا يتنازل عن جنيه واحد حتى ولو كانت الصفقة بالمئات، فأسلوبه فى التعامل يختلف من حال إلى حال، لكن المحصلة النهائية أنه الرابح دائمًا. . وتكشفت لى شخصية الحاج أكثر وأكثر، فإذا اندمج فى العمل بدا كأنشط ما يكون رجل الأعمال الناجح، وفى المساء يتحلق مع رفاقه حول «التعميرة»، ويظل يحشش حتى الفجر، وفى بعض الليالى يتسلل إلى مجالس ذات طبيعة أخرى تضم عددًا من النخبة فى المجتمع حيث تتقارع الكؤوس، ويقال إن له بعض العلاقات النسائية المشبوهة، لكنى أعتقد أنه لا ينسى العمل أبدًا فى أى موقع من المواقع، إن سهراته وجلساته وصداقاته تمتُّ دائمًا إلى مصالحه وأعماله، والغاية تبرر الوسيلة. . مبدأ سياسى طبقه الحاج فى نطاق حكومته الصغيرة. . أعنى شركته. . والحاج يفعل ذلك عن وعى تام، إنه يعطى ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، وما لأسرته لأسرته، وما لنفسه- وهو الأهم- لنفسه. . ويكرر الحاج دائمًا: «نحن فى زمن غير الزمن الماضى. . ومن لا يلعب بالبيضة والحجر

يضيع . . هذا زمن الحواة . . لا يحدثنى أحد عن الحلال والحرام فأنا أعرفه من تلقاء نفسى . . إن فعلت غير ذلك فلسوف يركبنى الفقر ، ويمتهننى الذل ، والفقر هو بؤس الحياة الخالد . . اسألونى أنا ، فقد ذقت مرارته لسنين طويلة . . الدنيا كالغابة فعلاً . . لكننى لست المسئول عما يجرى . . المسئولية تقع على الذئاب النهمة» .

أما زوجتى بدرية فقد كانت تنحو بتفكيرها منحى آخر ، كانت لا تفتأ تذكر «صافى» بمناسبة وبغير مناسبة ، بعد أن شرحت لها ما جرى فى تلك الليلة التى لقيتها فيها لأول مرة ، كانت زوجتى سيئة الظن ، حادة الكلمات عندما تتحدث عنها ، وتقول بدرية فى غيظ :

- «إنها امرأة فاسقة . . » .

-«استغفرى الله يا بدرية . . » .

- «ولِمَ لا؟ إنها تشرب المحرم . . وتمسك بيدك ، نعم تمسك بيدك بين يديها . . ألا تستحيى من الله أيها الرجل المسلم؟؟» .

- كنت أبتسم ، وأقول :

- «لم يكن شيئًا مقصورًا . . » .

- «لا تحاول . . » .

- «ألا تثقين فىّ؟؟ ومن أنا حتى تفكر صافى فىّ؟؟» .

- «إنها امرأة وأنت رجل، وأنا أحذرك. . الفنانات يفعلن أى شىء. . أتفهم؟؟».

وتكررت زياراتى لصافى بخصوص العمل، وانتهيت بحمد الله من التصميم المطلوب بعد العديد من التعديلات والملاحظات. . وجاءت النتيجة فى النهاية أعظم مما كنت أتوقع، وكانت مكافأتى ثلثمائة جنيه دفعة واحدة، قلت لها:

- «هذا كثير. . كثير جداً. .».

قالت وهى تنظر إلىّ بتقدير:

- «العبقرية لا تقدر بثمن، وهذا مجرد رمز. .».

- «كان يكفينى رضاؤك عما أنجزت. .».

لم يكن الحاج على معى هذه المرة، جلست معها أشرب الشاى فى الحديقة تحت الأشجار الخضراء المزهرة، وكان الوقت عصراً، وأخذ الحديث يدور بنا هنا وهناك، وفجأة قالت:

- «هل فكّر الإخوان فعلاً فى نسف السينمات والمسارح والفنادق. . و. .».

كان الاتجاه لمثل هذه الأمور يزعجنى ويجرحنى، وخاصة بعد أن رأيت أن المرأة لها علاقات قوية ببعض رجال السلطة الأقوياء،

والدفاع عن الإخوان- فى نظرهم- جريمة لا تغتفر، والتسليم هو الآخر بالاتهام الموجهة إليهم ظلم فادح. . ووجدتنى أقول:

- «لقد طلقت السياسة. .».

وضحكت لتعبيرى، وقالت:

- «والسياسة كالزواج الكاثوليكى لا طلاق فيها، ولا فكاك منها. . وأصحاب العقائد السياسية، كأصحاب العقائد الدينية. . لا يمكن أن يتخلصوا نهائيًا منها. . فما بالك وأنت رجل تعتبر السياسة جزء من الدين. .».

أدهشنى سعة أفقها، وإلمامها بالأمر على نحو لا يتوفر لممثلة، إن أمرها يزداد خطورة، ولا بد من الخلاص والهروب. . وبدا لى أن الانتهاء من هذا المشروع يعتبر أمرًا حيويًا، يوفر علىّ الكثير من المتاعب والشكوك.

واستطردت قائلة:

- «لهذا اعتقلوك. . وسوف يعتقلونك مرة أخرى إذا دعت الضروة لذلك، على الرغم من طلاقك المزعوم للسياسة. .».

وصمتت برهة ثم قالت:

- «لكن الشىء الذى يحيرنى هو ذلك العنف الذى تلجأون إليه. .»، وعلى الرغم من يقظتى التامة، وحرصى الشديد على عدم الاقتراب من مناطق الخطر إلا أننى قلت:

- «الاتهامات تصدر من جانب واحد. . يملك كل وسائل الإعلام، أما الجانب الآخر. . المتهم. . فليس لديه أدنى فرصة للدفاع، أو توضيح وجهة نظره. . وافتقاد الدفاع عن النفس، وتعطل الحوار يعنى. . «لا حرية». . ».

هزت رأسها فى هدوء، وقالت:

- «لقد أجبت. . ».

وأخذت تحدثنى عن فلسفتها فى الحياة، إنها تؤمن بالحرية فى نطاق معين، فهى تلبس وتأكل وتشرب ما تشاء، وتعقد الصلاة التى ترتاح لها، وتعترض وترفض، لكنها لا تفكر فى خوض معركة. . ليس هناك فى هذه الحياة ما يستحق أن يبذل فيه قطرة دم واحدة، أو يساق الإنسان بسببه إلى السجن. . هكذا كانت تقول، والسياسة فى رأيها سفسطة فارغة بالأسلوب المشاهد اليوم، ومن ثم فهى تتأفف من الصراع الساخن الذى ينشب داخل الشعوب فى هذا الصدد. . والعمل الوطنى الصحيح فى رأيها هو العلم والإنتاج والتنمية والرخاء مثلما تفعل الدول المتقدمة، أما الصراع على «الكرسى» فهو حماقة ومضيعة للوقت. . «إننى حتى الآن لا أستطيع أن أفهم لماذا يموت رجل من أجل مبدأ. . ».

قلت فى حماسة:

- «مثلما يموت الجندى فى ميدان القتال وهو يدافع عن شرف وطنه. . ».

ردت بسخرية:

- «الكثيرون يموتون فى المعارك، ولا يعرفون لماذا يموتون. . ».

قلت:

- «أما المؤمن فيعرف».

- «ومَنْ هو المؤمن يا باشمهندس؟؟».

- «هو من آمن بالله، وصدق بكتبه ورسله وأنبيائه. . ».

- «أنا أفعل ذلك. . ».

- «والجهاد فريضة. . ».

- «ضد مَنْ؟؟».

- «الظلم. . الفساد. . الاستغلال. . الكفر. . ».

ولما لم تعلق، قلت:

- «إن الطبيب لا بد أن يقضى على الميكروب، أو يستأصل الداء، حتى يتم الشفاء، وينجو المريض من الموت. . ».

تنهدت فى شىء من الضيق، وأشارت بيدها، ثم قالت:

- «كنا جادين أكثر من اللازم . . » .

ثم التفتت إلىّ فجأة، وقالت :

- «ما رأيك فى الحب؟؟» .

أربكنى السؤال، فحاولت الهرب قائلاً :

- «على الشاشة؟؟» .

ضحكت، وقدم أحد الخدم وعلى يده بضعة كؤوس من البيرة، وقليل من طعام «المزة» . .

مالت نحوى قائلة :

- «عصير ليمون» .

- «نعم . . » .

ألقت برأسها فى استرخاء فوق مسند الكرسى، وكانت تتطلع إلى السماء الزرقاء الصافية، وإلى الزهور والأشجار والخضراء الجميلة، وتستنشق نسيم الأصيل العليل فى استمتاع أكثر من استمتاعها بما تشرب، وعادت تقول :

- «أتلعب الشطرنج؟؟» .

- «نعم . . وأجيده . . » .

قالت وهى تشرد ببصرها إلى بعيد :

- «ما أسعدنى فى نهاية الشوط وأنا أقول «كش ملك» فلا يجد منافسى مناصًا من التسليم. . ».

وجلسنا نلعب الشطرنج، كانت تحرك القطع عن علم وبمهارة غريبة، وعلمت منها أنها قرأت العديد من كتب الشطرنج، وأن اللعب ينسيها الكثير من هموم الحياة، ويجعلها تستغرق تمامًا فى التفكير، وكم كانت دهشتى لجرأتها وهى تسأل أثناء اللعب.

- «أليست لك تجارب قبل الزواج؟؟».

- «فى أى شىء؟؟».

- «الحب. . ».

سقط «الفيل» من يدي وارتبكت، لكننى سرعان ما استجمعت قواى، وقلت:

- «تجارب صبيانية تافهة».

قهقهت قائلة:

- «دائمًا أنت فى معتقل. . سواء داخل السجن. . أو فى دائرة حياتك المغلقة. . لقد فرضت الحرمان على نفسك. . ».

- «ليس على هذا النحو».

- «أنا لا أكذب. . حياتى برغم ما فيها تبدو رائعة جميلة. .

حتى فى السجن كنت أشعر بالعزاء، ولا أبالغ إذا قلت السعادة..».

قالت ساخرة:

- «إنه الوهم..».

- «إننى أعبر فعلاً عما شعرت به..».

- «لأنك لم تر غيره..».

ثم صفقت بيدها، وقالت فى سعادة وهى تنقل إحدى القطع:

- «كش ملك..».

نظرت إلى الرقعة، كنت محاصراً تماماً، أخذت أبحث عن مخرج، كيف حدث ذلك؟؟ هل خدعتنى، وغيرت مواقع جنودى؟؟ إننى لا أعرف بالضبط ماذا جرى!! هل استهتارى بها أدى إلى هزيمتى؟

قالت وهى تقف، ثم تدنو منى أكثر:

- «وعندما تنهزم لا بد أن تدفع الثمن..».

دارت بى الأرض وهى تجلس على ركبتى، وتطوق عنقى بذراعيها، وتقبل نحو شفتى..

انتفضت واقفاً كمن لدغه عقرب وتمتمت:

- «هذا لا يليق. . أنت سيدة محترمة مثقفة. . وأنا. .».

صرخت قائلة:

- «أعرف، أنت متزوج. .».

- «آسف. .».

- «فلنتزوج إذن. .».

- «لكنى لم أفكر فى هذا الموضوع. .».

قالت فى غضب شديد:

- «فكّر كما يحلو لك. .».

ثم جرت إلى الداخل، وتركتنى واقفًا كالتمثال الحجرى. . لقد حدث كل شىء بسرعة فائقة أذهلتنى. . وعندما استوعبت الموقف بشتى جوانبه، أخذت أجرُّ قدمى خارجًا من باب الحديقة، لم أكن أعرف ماذا أفعل!! قال لى السائق الأسمر:

- «تفضل السيارة فى الانتظار. .».

- «شكرًا، المكان قريب. .».

- «هذه أوامر الست. .».

وفتح لى الباب، يبدو أن مخالفة الأوامر غير مرغوب فيها بالمرة، دلفت إلى المقعد الخلفى، وعندما سألنى عن وجهتى قلت:

- «وزارة الداخلية . . شارع خيرت . . عند لاظوغلى . . ».

رد دون أن يلتفت إلى الخلف :

- «أعرف . . ».

وسارت السيارة بنعومة . .

فلأتكلم بصراحة ، لقد صنعت لى «صافى» جوًا من أحلام لم أذقه من قبل ، خيل إلىّ أنى محاط بالأريج والبخور والسحر ، وأن قوى غريبة تغلل إرادتى ، وجوانحى تخفق بمشاعر مهتاجة لا عهد لى بها ، ووجدتنى أغوص رويدًا رويدًا فى عالم من خدر مثير يشل قواى ، ويغشى على بصرى ، وينسينى أشياء كثيرة عشت فى رحابها سنين طوالاً . . لكن الحلم لم يدم . . تبدل كل شىء فى لحظة ، وتحول الحلم الجميل إلى كابوس مزعج . . وهكذا استعدت قدرًا من إرادتى ، ونجوت هذه المرة . . من الأفضل ألا أذهب إليها مرة أخرى ، حتى ولو لم أجد اللقمة . . إننى لا أستطيع أن أهدر تاريخًا طويلاً من النقاء والعفة والصدق . . فلأكبح هواى ، ولأقمع هواجسى ، وغدًا أنسى . . ولا شك أن غلظة سيادة المفتش فى المباحث العامة سوف تردنى إلى صوابى ، إنه- كالعادة- سيلهبنى بسياط التقريع والتهديد ، وسيستعرض براعته وخبرته فى انتقاء الشتائم المقذعة . . حتى لا أنسى ، وحتى أظل فى قبضته العاتية . . إننى أتمنى اللحظة أن يلقننى درسًا فى الأدب حتى أصحو . .

وانصرف السائق بعد أن أنزلنى لدى باب المباحث، ويبدو أن الشرطى الواقف بالباب قد رآنى وأنا أنزل من السيارة الفارهة، لهذا تركنى أدخل لأول مرة، دون أن يكلف نفسه مؤنة التحقق من بطاقتى الشخصية، أو يتصل تليفونيًا بالداخل كى يسمح لى بالدخول، ولم يطل بقائى فى قاعة الانتظار فقد استدعانى المفتش على الفور..

قابلنى بابتسامة عريضة مرحبًا، وطلب لى الشاى، وأخذ يسألنى عن أحوالى بود ظاهر، ويسأل عن عملى وأسرتى وحالتى النفسية، وأخذ يؤكد لى رضاه عنى، وارتياحه لسلوكى الطيب، وخاصة عدم اتصالى بأحد من الإخوان القدامى، ثم انتقل إلى موضوع سفرى للخارج، وأخذ يؤكد لى أن الإجراءات تمضى فى طريقها الصحيح، وإن كانت تحتاج بعض الوقت بسبب الظروف السياسية الراهنة، لكنه مع ذلك يأمل خيرًا فى الاستجابة لطلبى، ما دمت أسير على هذا النحو من الاستقامة والإخلاص للرئيس والوطن.

وأضاف سيادة المفتش قائلاً:

- «لقد شهد لك أحد كبار المسئولين، وضمنك شخصيًا.. وأرجو أن تكون على مستوى المسئولية، حتى لا تحرج الرجل..».

قلت فى لهفة:

- «مَنْ هو؟؟».

نظر إلىّ فى شك، وقال:

- «ألا تعرفه؟؟ على العموم نحن لا نعطى معلومات.. بل نأخذ معلومات.. المهم ألا تتراجع أو تفسد مرة أخرى.. والحقيقة أن تقارير المراقبة عنك تدعو للارتياح..».

عدت إلى الشارع.. لم أكن أعبأ بالضجيج والضوضاء والزحام؛ لأن فى رأسى صخبًا عاليًا مدمدمًا، يحجب عنى ما عداه، لقد رضيت عنى المباحث أخيرًا بعد أن أصبحت مستقيمًا مخلصًا للوطن، وأين هى الاستقامة؟؟ فأنا أجيد وضع التصميمات البارعة من قديم، وأحسن اللعب فى الشطرنج منذ كنت طفلاً، ليس هناك جديد سوى «صافى» لعلها الباب الذى يدخل منه التائبون والنادمون إلى الدنيا الجديدة، حيث المرح والسرور، وحيث الشطرنج، والكؤوس وعرض الأفلام، والبذخ والغناء والاختلاط والمؤانسة.. والحب.. سمعتها بالأمس تردد أغنية فيروز:

أعطنى الناى وغنِّ
وانس داء ودواء
إنما الناس سطور
كُتِبَتْ لكنْ بماء

كانت نبرات عاشقة . . قالت لى : «إن وجهك وسيم» . . قلت فى نفسى مجاملة مقبولة لا ضرر منها، وعادت تقول : «عيناك عالم ساحر» غمغمت : «لا بأس . . هكذا الممثلون والممثلات يلقون الكلمات عارية دون تحفظ» لكنها فى مرة أخرى قالت : إن أنفك وشاربك- مثل كبار أبطال الشاشة- تغرى بالتقبيل . . »، ارتج على القول، واحمر وجهى خجلاً، لكنى التمست لها العذر قائلاً : «الممثلات يتمسن بالجرأة . . والوقاحة أحيانًا . . ولا يمكن أن نطبق عليهن المقاييس الأخلاقية التى تعلمناها- كأنى سمعت شيئًا . . لكنها فى الحقيقة ألفاظ لا تليق . . فلأنس» . . لكنى كنت أذهب إلى المرآة وأنظر إلى وجهى الوسيم- كما تزعم- وإلى شاربى وفمى، وأتمعن فى صورتى، فلا ألحظ شيئًا جديداً . .

ترى لماذا كتب الله على أن أدلف إلى هذا العالم الذى لم أكن أراه من قبل إلا عبر الحواجز الزجاجية أو على الشاشة الفضية؟؟ وتثب إلى ذهنى صورة الزنزانة والبرسن الخشن، وملامح السجّان القاسية، ثم أعود إلى قصر الفنانة الكبيرة . . القديرة . . صافى حيث الأبسطة العجمية والثريات . . وحيث الوجه النضر الذى ينبض بالجمال والإثارة والنشوة . . ما هذا التناقض الصارخ فى هذا العالم الجديد؟؟ وهل هو جديد فعلاً؟ وأين الحقيقة؟؟ هنا أم هناك؟؟ وما الفرق بين عالم قديم وجديد؟؟ وأنا فى هذا المكان أو ذاك أتقلب على نار القلق والعذاب .

وفى البيت ظللت أصلى فترة طويلة، حتى كاد الطعام أن يبرد، وقالت زوجتى:

- «لقد صليت كثيراً الليلة..».

- «لأنى أصلى العصر والمغرب والعشاء..».

قالت فى دهشة لأنها تعلم مدى دقتى فى أداء الصلاة لوقتها:

- «وما الذى عطلك عن الصلاة؟؟».

هتفت فى شرود:

- «الشيطان..».

وتمثل لى الشيطان فى وجوه كثرة، السجان.. سيادة المفتش.. الحاج على.. صافى.. المدير الذى أعطيته الرشوة.. تاجر المخدرات الذى يتعامل معه الحاج.

ردت بدرية فى استغراب:

- «الشيطان..».

- «نعم.. إنه حولنا.. فى كل مكان..».

- «أكاد ألا أفهمك..».

قلت وأنا أقترب من المائدة:

- «الشيطان يحكم..».

طوقتنى بذراعيها فى حنان، وقالت وقد نزعت يديها فجأة:

- «إننى أشم رائحة غريبة . .».

- «أنا لا أشم شيئًا . .».

دست أنفها فى صدرى، وتجولت به نحو فمى ووجهى وقالت:

- «عجيب . . يختلط للبرفان . . بالتفاح . . و . .».

قاطعتها قائلاً:

- «هناك ما يسمونه هلوسات سمعية وبصرية وشمية، ويبدو أنك تعانين من النوع الأخير . .».

وضحكت لكنها ظلت صامتة، تدقق فى وجهى النظر، وبعد لحظات صمت قالت وهى تكاد تبكى:

- «إنى خائفة . .».

- «م؟؟».

قالت:

- «لا تجعل الشيطان ينسيك الصلاة مرة أخرى . .».

لم أستطع مواجهتها، وجاءت النجدة من الله، لقد صرخت هدى النائمة فى سريرها الصغير، فجرت زوجتى إليها، وهى تبسمل وتحوقل، فقلت لها بصوت عال:

- «لعله كابوس . . ».

تذكرت كلمات شيخنا الشهيد الذى علمنا الحب والسياسة والصدق، وكان يحذرنا من اليأس . . يقول: الحياة سلسلة من الابتلاءات . . الغنى والفقر كلاهما ابتلاء . . النصر امتحان . . والهزيمة امتحان . . لا يهم هذا أو ذاك، بل المهم أن يظل المؤمن متماسكًا لا يتزحزح . . يصبر فى موقف البلاء، ويشكر فى مجىء النعماء . . ويستغفر عند الخطأ . . ويتوب . . ويعزم على ألا يعود إلى الذنب . . أذكر أنه حدثنا عن فتنة النساء . . لكنى لم أكن أتصور الأمر على هذا النحو من الخطورة إلا بعد أن عرفت «صافى» . . إننى الآن أتذكر قصة نبى الله يوسف وامرأة، العزيز . . كانت جدتى تحكيها لى كثيرًا وأنا طفل . .

●●●



إن لزوجتى بدرية قدرة فائقة على قراءة أفكارى، وفهم الحالة النفسية التى أعايشها، كما أنها تستطيع أن تستشعر ما قد يحدث، وكأن فى رأسها «رادارًا» يرصد من بعيد القوى التى تقدم نحوها، قالت بتأكيد:

- «أخاف أن تقع بين خيوط ذلك العنكبوت السام».

لم أكن فى حاجة إلى أن أسألها عمن تقصد، فهى دون شك ترمى إلى «صافى»، قلت فى ثقة:

- «وهل أنا على هذا المستوى من الضعف والغفلة؟؟».

- «بالطبع لا، لكن الإنسان قد يجد نفسه أسير ظروف قاهرة..».

كنت أدرك بينى وبين نفسى أن زوجتى على صواب، لكنى فى الوقت نفسه كنت متأكدًا من قوة إرادتى ومبادئى..

واستطردت بدرية قائلة:

- «هؤلاء لا يعرفن الحب.. ويسمون النزوة حبًا..».

فيلسوفتى الحبيبة تتحدث بصدق، وتنطق بحكمة، وعلى الرغم من صغر سنها، وقلة خبرتها، وتواضع ثقافتها، لكأن الله ينطقها بالصدق، لما جبلت عليه من نقاء سريرة، وصدق فطرة، وعادت بدرية تقول، وأنا مازلت أنظر إليها فى صمت:

- «أنت شىء طريف بالنسبة لها.. تختلف كثيراً عن حاشيتها وهذا هو سر انجذابها إليك..».

إن زوجتى تستدرجنى كى أعترف لها بأن شيئًا ما قد حدث، وإنى بدأت الخطوات الأولى فى طريق الغواية، وعندما تتأكد بدرية من ذلك، فسيتحول الموقف، وتتغير الصورة والأسلوب، وقد تصبح اليمامة الوديعة صقراً ينشب مخالبه دون رحمة، إنى أرى فى عينيها ذلك، وأستشف فى ضعفها قوة كامنة قد تنفجر دفعة واحدة.

قلت لكى أوقف اندفاعها وتوثبها:

- «تتحدثين وكأن كارثة وقعت..».

لم تعلق، بل ظلت شاحبة حزينة:

- «إن حبنا يا بدرية كالصخرة العاتية لا يستطيع أى شيطان أن يزحزحه..».

دمعت عيناها، وارتمت على صدرى وهى تتشنج، وتقول:

- «تحملت العذاب من أجلك.. بقيت فى غيابك أنوء بالعبء، كان بينى وبينك الأسوار والحواجز.. لكنك دائمًا كنت معى.. فى قلبى.. وإلى جوارى.. أحدثك وتحدثنى.. وكنا نحلم بيوم الحرية.. وجاءت الحرية ومعها عذاب من نوع جديد.. إن اضطهاد المباحث ومظالهم أخف على قلبى مما أعانيه الآن..»

ثم تشبثت بى أكثر وأكثر كطفل يخاف أن تنتزعه الأشباح من بين ذراعى أبيه، وأخذت تقول:

- «لن أرضى أن تستحوذ عليك فاجرة مثلها.. لست لها وليست لك.. وإذا اقتضى الأمر فسوف أقتلها قبل أن تستبيح سعادتى، وتلقى بى فى التعاسة..».

ربت على كتفها فى حنان، وأخذت أطمئن بالها، وأهدئ روعها، وأؤكد لها أن ما تتوهمه من ظنون مجرد سراب خادع سرعان ما يتبدد تحت شمس حبنا الساطعة القوية، كانت بدرية تريد أن تسمع منى مثل هذه الكلمات حتى ولو كانت كذبًا.. وبدا وجهها الذابل الشاحب أشد فتنة وجمالاً وجلالاً، وأثر فى نفسى احتقان عينيها، ورنة الأسى فى صوتها.. وعادت تعزف على وتر هى تعلم مدى تقديسى له قائلة:

- « أنت من دعاة إلى الله..».

- قلت مازحًا لكى أبدد جو الكآبة الذى يظللنا :

- «لعل الله يهديها على يدىّ . . » .

وضحكت ، لكن بدرية ظلت محزونة ، ثم تمتمت :

- «الزارع لا يضع البذرة إلا فى أرض خصبة . . » .

- «ولماذا يا عزيزتى وضعوا قانون إصلاح الأراضى؟؟» .

- «ليس قبل أن تستغل الأرض الصالحة . . » .

وقلت وأنا أبتسم :

- «أتعرفين قصة «المجدلية» مع سيدنا عيسى عليه السلام؟؟» .

- «لا أعرف . . » .

- «كانت خاطئة . . وجاءت إليه تائبة تغسل قدميه . . ذهل الناس الذين يعرفونها ، ورموها بأبشع التهم . . وكانوا صادقين ، لكن عيسى عليه السلام قال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . . أمسكوا بالأحجار . . ثم فكروا . . وأخيراً . . تركوا الأحجار تسقط . . وانصرفوا . . » .

قالت بدرية فى تحدٍ :

- «المجدلية جاءت تائبة بصدق» .

- «أجل ، ومن قال إن صافى مثلها؟؟» .

تذكرت صافى وهى تملأ كؤوس البيرة أو الويسكى، ثم وهى تبدو عارية كاسية مثيرة للغرائز، ثم وهى تجلس على ركبتى فى استهتار، وتريد سوقى إلى مخدع العار وإصرارها على تحقيق نزواتها، ولما فشلت فى استدارجى طوال الأسابيع الماضية، لجأت إلى خدعة الزواج، لأكن صادقًا مع نفسى ومع الحقيقة، إن صافى لا تفكر فى الهداية، ولا تعرف طريق الاستقامة، بل لعلها تظن ذلك خرافة وجحودًا ورجعية..

●●●

كل ما استطعت أن أفعله هو مقاطعة «صافى»، لم أعد أذهب إلى منزلها، وكنت جادًا فى الانتهاء من مشروعها حتى أخفف عن نفسى أعباء التوتر والقلق، ولاحظت أن الحاج على بدأ يعاملنى بجفاف وغلظة، على الرغم من النجاح الكبير فى الأداء والتنفيذ، ولم يكن من الصعب أن أدرك السبب، فأنا لم أرتكب خطأ ما فى حق الحاج أو العمل، ومن الواضح أن السبب الوحيد هو إغضابى «لصافى»، إننى أعرف أهميتها بالنسبة للحاج، ففى إمكانها أن تمده بمئات الأطنان من الحديد والأسمنت بالسعر الرسمى، كما تستطيع أن تحميه من مطارات المنتفعين فى مختلف المصالح الحكومية والمؤسسات، وتيسر له أمر الحصول على العديد من المشاريع الجديدة حكومية وغير حكومية، هو نفسه أخبرنى بذلك صراحة

أكثر من مرة، وكان يؤكد أن «صافى» هى الضمان الأكبر له فى كل شيء، حققت فى القروض التى يحتاج إليها من البنوك، وفى الحصول على العملة الصعبة التى كثيراً ما تشح فى السوق السوداء.

فاجأنى الحاج بقوله:

- «إن سلوكك على هذا النحو سيدمرك دماراً نهائيًا».

خفق قلبى أمام ذلك التهديد الصاخب، وهتفت:

- «هل أخطأت فى حقك؟».

- «وأى خطأ!!».

- «لا أفهم..».

تنحنح، ومد ساقيه إلى الأمام، ورفع السيجارة إلى فمه بيد مرتعشة، ثم جذب نفسًا عميقًا، وقال:

- «حسبتك ستتطور».

- «هل تشك فى كفاءتى ومهارتى؟».

- «أنت جامد.. تعيش فى عصر غير العصر، وهذا هو السبب فى البلاء الذى يصب على رأسك.. ألا تعلم أن «صافى» تستطيع أن تقذف بك وراء الشمس مرة أخرى؟؟ إنها مركز قوة لا يستهان به..»

قلت فى دهشة:

- «لم أفكر فى أمر كهذا..».

- «لأنك أحمق، لا تفهم الدنيا..».

نهضت واقفًا:

- «إنى أرفض الإهانة.. اعتبرنى مستقيلاً..».

قهقه كشيطان، وانقلبت سحنته الطيبة، وبدا لى منه وجه آخر، وقال:

- «ومن قال إنك تستطيع الاستقالة؟؟».

- «إنها حقى الطبيعى..».

- «ليس لأحد حقوق فى هذا البلد.. اعرف واجباتك التى يحددونها.. وكفى..».

- «لسنا عبيدًا..».

- «أستغفر الله.. كلنا أحرار.. لكن على صورة ما..».

هل تستطيع «صافى» فعلاً أن تلحق بى الضرر؟؟ ولم لا؟؟ لقد تغيرت معاملتى تمامًا فى المباحث العامة، ولم أعد ألاقى أى عنت أو مضايقات، وامتلأ جيبى بالمال، وعرفت يقينًا أن لدى الكثير من المواهب والميزات التى أحسد عليها، بل إن صافى أكدت لى أكثر

من مرة أننى لن أتعرض للمتاعب السياسية مرة أخرى، ولن يجرؤ أحد من رجال الأمن على اعتقالى.. يا سبحان الله!! إننى أنعم بالاطمئنان فى جانب، لكنى أرانى أفقد حريتى وملكيتى لقرارى من جانب آخر..

وقال لى الحاج وهو يرمقنى متذللاً:

- «أيها الأبله تزوجها.. لن تخسر شيئًا.. تزوجها سرًا.. هى تريد ذلك، ولن تستطيع الصحف أن تنشر خبر زواجها منك.. إنها تستمتع بحصانة خاصة كالحصانة التى يستمتع بها رجال الأمن والمخابرات.. وتأكد أن زوجتك لن تعرف شيئًا..».

وتنهد الحاج فى شىء من القلق، وقال:

- «وزواجها عادة لا يدوم طويلاً..».

وعجبت لما أسمع، بالأمس البعيد كانت الجوارى تباع فى سوق الرقيق الأبيض بصورة رسمية، واليوم يباع الرجال فى العديد من الأسواق الجديدة، إنهم يقتلوننا أحياء.. ونظل نروح ونجىء كأشباح.. كآلات صماء.. تدار بالأزرار..

قال الحاج:

- «ولا بد أن تذهب إليها.. لا يجرؤ أحد على مقاطعة «صافى»، هل تفهمنى يا باشمهندس يا متعلم؟».

لشد ما حيرتنى هذه المرأة؟؟ مَنْ هى؟؟ وما هو دورها فى هذه الغابة البشعة؟؟ وهل تمتلك فعلاً هذه القوة الخرافية؟؟ لو أنى سافرت لما تلظيت بهذا العذاب كله . . سيظل السفر هو الأمل، وسيخفق هذا الحلم فى خيالى دائمًا أبدًا . . إنه الطريق الوحيد للخلاص من وحوش الغابة . .

قلت للحاج على فى إصرار :

- «لن أذهب، وليكن ما يكون» .

هدر فى غيظ :

- «أيها التافه مَنْ أنت؟» .

- «الزم أدبك . . أنا إنسان ولى كرامتى . . » .

- «وهل الزواج الشرعى إهدار للإنسانية والكرامة؟؟» .

- «بهذه الطريقة . . نعم . . » .

- «إن مئات الألوف يساقون إلى الزواج من بنات العم وبنات الخال . . وإلى نساء يمتلكن المال والحسب . . ومع ذلك يعيشون وينعمون وينجبون البنين والبنات . . ألا يحدث هذا فى واقع الحياة؟؟ فكر فى مصلحتك يا بنى . . أنا شخصيًا تزوجت -كما تعلم- ثلاثة . . وأنت ممن يحملون راية القرآن وتعلم . . . مثنى وثلاث ورباع . . » .

كان فى واد، وأنا فى واد آخر، يرطن بلغة، وأنا أتكلم بلغة أخرى، وينطلقّ من مبادئ مقتنع بها تمامًا، وأتحرك أنا على طريق للقيم لا يهتم به، وكان من الصعب أن نلتقى. . وقررت أن أترك العمل مهما ترتب على ذلك من نتائج. .

عدت إلى عشى الصغير موزع النفس، مكلوم القلب، منهك الجسد، واحتضنت «هدى» الفرحة الضاحكة، كانت قبلاتها لى كالماء العذب فى فم الظامئ، التائه فى بيداء الصحراء، وطلبت فنجانًا من القهوة، كنت أرشفه فى شرود، وبدرية تتابعنى فى صمت قلق، هل صحيح أنه لا راحة فى هذ الدنيا، وأنها أكذوبة كبيرة، ومهرجان فارغ، وموكب يغض بالمهرجين والممثلين؟؟ لكنى رأيت أقوامًا يرفلون فى حلل السعادة، ويضحكون من قلوبهم، ويتغنون بالسعادة والهناء. . فهل نصيبى أن أشقى وأتعذب، فلا أكاد أخلص من مأزق حتى أقع فى فخ جديد وأظل أتلوى فيه ألمًا حتى يتلقفنى فخ آخر؟؟ ولماذا أنا الفريسة دائمًا وغيرى هو الصائد الماهر؟؟

قلت لبدرية ونحن على مائدة الطعام:

- «أصبحت فى الشارع من جديد».

توقفت عن ازدراد اللقمة، وازداد وجهها شحوبًا، وهتفت فى قلق تبدى فى وجهها وفى عينيها:

- «لماذا؟؟ هل أغضبت الحاج فى شىء؟ .

قلت باقتضاب :

- «أنا أكره العيش فى مستنقع . . » .

- «لكن مهمتك محدودة ومعروفة . . » .

- «إنهم يوسعون دائرة اختصاصى . . » .

- «قد تستفيد أكثر . . » .

- «وقد أخسر أكثر . . » .

- «لا أفهم . . »

- «وأنا أيضًا . . » .

ما أعجبك يا «صافى» ! ! وماذا فىّ حتى تهيمى بى عشقًا؟؟ إن المدينة مليئة بأصناف شتى من الرجال ، فيهم من يكونون أعلى مقامًا ، وأكثر جاذبية وأناقة ، وأعظم ثراءً وعطاءً ، وكيف تتفق تصرفاتك مع ما تتزينين به من ثقافة ، وما تملكينه من سلطة؟

•••

أفقت فى الثالثة صباح اليوم التالى مذعورًا ، كانت الدقات العنيفة على الباب مزعجة ، وكان الجرس يرن بانتظام يوقظ الرعب القديم فى قلبى ، كانت الصغيرة «هدى» تصرخ ، وزوجتى بدرية

تقف كالبلهاء، وكأنها فقدت عقلها، وهمست وأنا ألهث كجواد أنهكه السباق:

- «لقد عادوا. .».

فتحت الباب، تدفقوا منه كالوحوش الحبيسة الجائعة، وأخذوا ينشبون أظافرهم وخناجرهم فى الفراش والمقاعد، وينثرون الشتائم والأكاذيب هنا وهناك، قلت لقائدهم:

- «لكنى لم أرتكب جريمة. .».

- «دائمًا تقولون ذلك فى البداية. .».

- «أقسم بالله أنى برىء. .».

- «لا تحاول، ومتى كنا نصدق قسمكم؟؟».

- «قد تكون دسيسة. .».

- «نحن لا نلفق التهم. .».

خالجنى شك فيما يجرى، إن هؤلاء الناس لا أعرف منهم أحدًا، ولهم أسلوب قد يختلف فى بعض التفاصيل الدقيقة عن أسلوب المباحث العامة، أهى جريمة خطف؟ ولماذا؟؟ لست مهمًا لهذه الدرجة حتى تأتى عصابة لتسرقنى، فليس لدى مال كثير لأدفع فدية، ولست ذا سلطة أو مركز قوة حتى يتخلصوا منى وصرخت فى صوت عالٍ:

- «مَنْ أنتم؟؟».

- «ألا تعرف يا حضرة الأخ . .».

- «أرونى بطاقاتكم الشخصية . .».

قهقة قائدهم، ثم اقترب منى، وجذبنى من طوقى فى عنف، وفحَّ قائلاً:

- «اخفض صوتك وإلا حطمت رأسك . .».

«انفجرت بدرية باكية، وارتمت على المقعد منهارة، وكانت هدى ما تزال تصرخ دون أن يعبأ بها أحد . .».

وجرونى إلى الخارج . . لقد عادت الأيام السوداء مرة أخرى . . أين المفر يا عبد القادر؟؟ إنه قدرك الذى لا فكاك منه . . إن ما جرى هذه المرة ينبى عن خطر ماحق، ورجال الأمن فى هذه الأيام أصبحوا كالكلاب المسعورة، بعد أن استتب لهم الأمر، وقهروا المعارضة، وسيطروا على كل الأجهزة، وصاروا لا معقب لأحكامهم . .

إن المكان جديد، لم أتشرف بزيارته قبل ذلك، لا أعرف موقعه بالضبط؛ لأنهم ربطوا عينى بعصابة سوداء، كل ما أراه هو الغرفة التى ألقونى فيها، لا أكاد أسمع صوتًا، ولا أعرف ماذا يجرى حولى أو فى الخارج . . «أقول لها وقد طارت شعاعًا . .»

أبيات من الشعر القديم . . وماذا أقول لنفسى التى تعذبت وقاست معى؟؟

بقيت على هذا الوضع التعس أيامًا ثلاثة، وليس هناك من جديد سوى أن يأتى رجل صامت يلبس زيًا مدنيًا، ويقدم لى الطعام والماء مرتين فى اليوم، ويقودنى معصوب العينين إلى دورة المياه مرة كل مساء، لكنى عجبت لنظافة الدورة، ووجود (كابنيه) إفرنجى بها، وكانت وسيلتى لذلك اللمس والاستعمال.

فى اليوم الثانى استطعت أن أنام جيدًا، لم أقلق كثيرًا على بدرية، فقد تركت لها من المال ما يكفيها لستة أشهر، وبشىء من التدبير قد لا ينفذ الرصيد إلا بعد عام. . لو سافرت لما حدث ذلك كله. . لكن كلمة «لو» تفتح باب الشيطان. . ويحتدم فى قلبى الغيظ والغضب، ويشتط بى الخيال، فأتخيل نفسى، وقد حملت مدفعًا رشاشًا أحصد به كل الطغاة. . ثم لا بأس أن أموت بعد ذلك. . إن القهر نار تحرق، وقد تدفع إلى الجنون. . آه يا وطنى الكئيب. . أحرام على بلابله الدوح. . حلال للطير من كل جنس؟؟. . وأحلم بواحة خضراء وارفة الظلال، يغرد فيها الحب، ويضوع فى جنباتها ريح الصفاء والسلام والأمان. . لكن الغابة تزحف وتزحف. . وتأكل الواحات الجميلة. . والوحوش تتوالد وتتكاثر. . والثعابين المخيفة تتلوى، وأنا أنقل خطاى فى حذر،

مخافة أن أدوس واحدًا منها، فتعضنى أنيابه السامة.. حدثنى إخوانى عن حية رهيبة فى الصحراء المحيطة بسجن الواحات، يقولون إنها إذا لدغت جملاً سقط لتوه.. أيمكن أن يتسلل ثعبان إلى شقتنا؟؟ يا للكارثة!! ليتنى حذرت بدرية من خطر الثعابين التى قد تدخل من النوافذ المفتوحة، أو خلال الفراغ أسفل باب الشقة.. لكم أخاف على صغيرتى «هدى»!!

يا رب.. يا رب احفظهما من الثعابين.. ما هذه الأفكار الغريبة التى تراودنى؟؟ يبدو أن خللاً ما أصاب عقلى، هذه هى الهلوسات بعينها.. إن هذا الكون الواسع الكبير يخضع لرقابة ربانية لا تغفل، كان خطيب قريتنا يقول: «إن الله يسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء.. وكنت أطرب لهذا السجع وأشعر بالاطمئنان، ما دام الأمر كذلك فلماذا أخاف؟؟ لماذا تطير نفسى شعاعًا كما يقول الشاعر الثائر فى العصور القديمة؟؟

تذكرت الحاج على، لا شك أنه قد عرف الخبر الآن، لسوف يعرف أهل الحى، ومنهم «المعلمة بسبوسة»، وهى بدورها ستنقل الخبر إليه، المعلمة هى الوحيدة التى ستبكى من أجلى، إن قلبها طيب بالفعل، أما المعلم على فسوف ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى، سوف يتضايق للتأخير فى تسليم مشروع الممثلة «صافى»،

صحيح أننى كنت قد تركت العمل، لكننى كنت أتوقع مجيئه، والتسليم بوجهة نظرى، وتركى حرًا فى أمورى الشخصية، وقد تطلب منى صافى العودة بعد أن تغير من أسلوبها ورغباتها التى لا تناسبنى، وخاصة أنها امرأة مثقفة ذكية، وسوف تعيد النظر فى الأمر على ضوء الواقع، ثم تدرك فى النهاية أننى على حق، أنا أعرفها، ربما كان ما جرى مجرد نزوة عابرة، أو لعلها كانت قد أكثرت من شرب الخمر، وفى مثل هذه الأحوال، لا تستقيم التصرفات، أو يحسن التفكير . . فالخمر كما أعرف تحيل الإنسان إلى ما يشبه الحيوان . . إن الأمر فى عمومه لا يعدو عن كونه غمة طارئة ثم زالت . . هى فعلاً جميلة ومغرية . . لكن . . سبحان الله . . كيف يدفعنى الشيطان لمثل تلك الأفكار الخطرة؟؟ اللعنة عليها وعلى الحاج وعلى الشركة، إن ما يهمنى هو الورطة التى رميت إلى أتونها رميًا دون ذنب جنيته . .

وفى اليوم الثالث شعرت بضيق بالغ، لم أعد أحتمل مثلما كنت أحتمل قبل ذلك، إن خيال هدى وبدرية والحنين الذى على وشك القدوم تلح على أحلامى فى اليقظة والمنام، وحياة العمل التى اندمجت فيها تجذبنى إليها . . إن التصميمات والرسوم، وتحويلها إلى واقع قائم إلى حقيقة ملموسة يبعث فى نفسى الفرح والثقة . . لكم أتمنى أن أعود إلى عملى مرة أخرى، وأغرق فيه حتى أذنى . .

تذكرت التهديدات التى أغرقنى بها الحاج على، ألم يقل إن «صافى» قادرة على أن تقذف بى وراء الشمس مرة أخرى، وأنها مركز قوة كبير؟ هراء.. كل ما يقوله الحاج على هراء، إنها فعلاً سعدت فى رفع العنت عنى فى المباحث العامة، لكنها لا تستطيع بأى حال من الأحوال أن تسجن بريئًا بكلمة منها.. هذا ما أتصوره، وخاصة أن الحاج على رجل منافق.. يبالغ.. ويهدد ويتوعد لكى يصل إلى مآربه.. وأنا لا أصدق مهاتراته، و«صافى» برغم نزواتها امرأة مستنيرة، وإن كانت متحررة بمفهومها الخاص.. ومهما كان الأمر، فلن تشتط بها القوة إلى هذا الحد، هذا ما يصوره لى تفكيرى، وإذا حدث تحقيق فسوف أعرف الحقيقة، وأنا خبير بمثل هذه الأمور..





فى كل مرة كنت أسير فيها إلى التحقيق، أشعر أننى أساق إلى الموت، لا يهم أن تكون فعلت أم لم تفعل، لكن ما يهم هو اتفاقك مع ما يتوهمونه، فرجال الأمن والمخابرات لا يعرفون شيئًا اسمه الصبر فى تحقيقاتهم، يريدون كل شىء بسرعة، فهم فى عجلة دائمة، ولذا يلجأون إلى تكثيف الضغط والعقاب، على اعتبار أن ذلك هو أقصر طريق للوصول إلى ما يعتقدون أنه الحقيقة.. وما أشقى الحقيقة بين الأدعياء..

وذهبت إلى التحقيق، وجىء برجل شاحب نحيل، يرتدى سترة صفراء، تفكرت مليًا حينما رأيته، إننى أعرفه، لكن من هو؟؟ وأين التقيت به؟؟ إننى عاجز عن تجميع شتات فكرى.. لأول مرة أرى تحقيقًا بدون أوراق.

- «أنت تجتمع مع المشاغبين فى مكتبك».

قلت: «مَنْ هؤلاء؟؟».

- «هذا ما نريد أن نعرفه منك يا عبد القادر» .

- «لكنى لم أجتمع بأحد . . جميع موظفى الشركة يعرفون أنى فى عزلة عن الجميع . . » .

وأشار المحقق بيده إلى الرجل ذى السترة الصفراء :

- تعال يا «سعد الله» .

وعلق المحقق :

- «إنه «عامل البوفيه» فى الشركة . . طبعًا تعرفه» .

- «أجل . . تذكرت . . سعد الله . . هو الوحيد عادة الذى يأتينى بالشاى والقهوة بانتظام . . » .

قال المحقق :

- «تكلم يا سعد الله . . » .

- «نعم يا بك . . كان يجتمع بهم ، ويشتمون الرئيس ، ويتهمون الحكومة بالفساد والظلم . . » .

تدلت شفتاى فى دهشة وصرخت :

- «حرام عليك . . كيف تقول هذا الكلام يا سعد الله؟؟» .

- «إننى أقول ما شاهدته بعينى هاتين اللذين سيأكلهما الدود . . » .

توترت أعصابى، هممت بأن أنقض على سعد الله وأشبعه ركلاً ولكمًا، لكن كيف، والشيطان يتربص، والزبانية تحيط بى من كل جانب؟؟ وأجلسوا سعد الله، على مقعد وقدموا له الشاى والسجائر، وبقيت واقفًا أنظر إلى المسرحية العجيبة فى دهشة، وجلس سعد الله يتحدث ويتخبط، ويأتى بجملة من هنا وجملة من هناك، ويتجنب النظر إلى وجهى، ، كنت أشك فى ذاكرتى، هل حدث شيء من هذا فعلاً؟؟ ربما أكون قد اتسعت فى الحديث مع الحاج على، أو مع الفنانة صافى، أو مع زوجتى، وربما أكون قد أبنت عن غضبى وحيرتى للمعلمة بسبوسة، لكنى لم ألتق بأحد من الأخوان فى مكتبى، لعل التقيت ببعض العملاء ذوى المصالح بخصوص بعض التصميمات. . . وما عدا ذلك فلا أذكر أننى خضت فى حديث سياسى. .

- «ما قولك يا عبد القادر؟؟».

- «دسيسة رخيصة. .».

- «تأدب يا عبد القادر. . سعد الله مواطن شريف ونحن نثق فيه وفى أمانته. .».

- «أتحداه أن يحدد تاريخًا معينًا، أو اسم أحد ممن يزعم أنى اجتمعت بهم. .».

- «وما الذى يدفعه لقول ما قاله؟».

- «لا شك أن لى منافسين وأعداء، ولا يستبعد أن يدفعه أحد إلى التجنى علىّ. . ».

- «ومن هم أعداؤك؟».

- «لا أعرف. . لكن طبيعة المنافسة فى العمل، وكذلك النجاح قد يوغر بعض الصدور، وأنا مهندس ناجح أنجز ما يوكل إلىّ على أكمل وجه، وأنال الحوافز والترقيات المتلاحقة. . تستطيعون أن تسألوا صاحب الشركة. . ».

- «وما اسمه؟؟».

- «الحاج على محمود». .

فتح المحقق درج مكتبه، ثم أخرج ورقة، ونظر فيها برهة، ثم دفعها إلىّ قائلاً:

- «اقرأ هذا التقرير. . ».

جرت عيناى على الكلمات المكتوبة بالآلة الكاتبة، لقد ذهب فعلاً ذات يوم إلى محلات «عمر أفندى» لأشترى مفرشًا لطاولة السفرة، وبعض الأشياء الأخرى التى لا يتعدى ثمنها عشرة جنيهات، والحقيقة أن الباعة أهملونى عندما أتى شخص يبدو مهمًا واشترى أشياء بأكثر من بثلثمائة جنيه، كنت أنظر إليه فى دهشة، آلمنى أن يكون سببًا فى إهمالى ومن معى من الزبائن، ولم أعلق إلا

بكلمتين أو ثلاث . . نعم أتذكر فعلاً أنى قلت : «ناس هايصة وناس لايصة» . . كان يقف إلى جوارى رجل لا أعرفه . . قال لى : «الظاهر أن البك من رجال المخابرات» ، أذكر أنى تنهدت فى حسرة ، ثم ثرت فى وجه أحد الباعة ، وطلبت منه الإسراع فى إعطائى المفرش ، وأذكر أننى قلت أيضًا : «نحن أيضًا آدميون مثله . . » .

وجدت شيئًا من هذه الواقعة فى التقرير المقدم لى ، وبالإضافة إلى ذلك وجدت عبارات عن نقدى للنظام ، والتمييز العنصرى بين فئات الشعب ، والسخط على المخابرات ورجال الأمن ، وغير ذلك من الأمور التى لم ترد على لسانى ، ولكنى فهمت أنها مجرد اجتهادات لكاتب التقرير سامحه الله . .

وبعد أن قرأت التقرير قلت للمحقق :

- «أنا لم أنتقد النظام ، أو أسب حراس الأمن . . وهذه كلها مجرد انطباعات لدى كاتب التقرير ، وليست وقائع . . وشتان بين الاثنين . . » .

- ماذا تقصد بكلامك «ناس هايصة وناس لايصة . . » .

- «أعترض على إهمال الباعة كمواطن له حقه» .

- «ماذا تعنى «بأنكم آدميون مثله» . . ؟؟

- «أى أن لى الحقوق نفسها . . وهذا ما تؤكده الحكومة دائمًا» .

تمتم المحقق قائلاً :

- «صحيح . . يموت الزمّار وأصبعه يلعب . . » .

- «ليس لدى أى سوء نية . . » .

صرخ قائلاً :

- «كفى . . أنكم تعرضون بأصحاب المسئوليات الكبيرة . . » .

لم أعلق بكلمة ، آثرت الصمت ، وصاح المحقق :

- «خذوه . . » .

جرونى إلى الغرفة التى احتجزت فيها ، وقبل أن أمضى نظرت إلى سعد الله فى أسى ، وقلت :

- «حرام عليك» .

- «طأطأ رأسه فى خجل ، ولم ينطق . . » .

عدت إلى العزلة والوحدة والأفكار التى لا ترحم ، إلى هذا الحد يحصون حركاتى وسكناتى وكلماتى فى الأماكن العامة التى لا يعرفنى فيها أحد؟؟ أية حياة هذه! ! لكن أمر سعد الله بالذات يؤرقنى ويحيرنى ، ترى كم تقاضى ثمنًا لشهادة الزور التى أداها بجسارة وبرود؟؟ وهل حصوله على بضعة جنيهات تجعله يقدم

على تدمير إنسان برىء؟؟ ومَنْ الذى دفعه إلى ذلك؟ إنى أعرف أن المهندسين القدامى يضيقون بوجودى، ويكثرون من الشكوى للحاج على بسببب تفضيله لى عليهم، وقد حدثنى هو نفسه بذلك، كما أن عم جابر السائق تكلم فى ذات الموضوع وحذرنى من هؤلاء الزملاء، ونصحنى بأن أضع أوراقى فى خزانة خاصة وأغلقها جيدًا حتى لا يعبثوا بها أو يسرقوها، وكنت أعجب لنصائحه، وأعتبره مبالغًا فيما يقول إلى حد كبير . . لكنى رأيت اليوم كيف يصل الحقد إلى مداه، وكيف تصاب القلوب بالعمى، وكيف تطمس الغيرة على العقول، ومن ثم يضعون الخطة لاغتيالى معنويًا . . إنهم يريدون التخلص منى بأى شكل، وعندما علموا بجرحى القديم «جرحى السياسى» وجهوا طعناتهم إليه، آملين أن أعود إلى السجن مرة أخرى، فيخلو لهم الجو، وينالوا حوافز الحاج، وينعموا بلقاء الفنانة «صافى» التى تتحدث عنها الشركة كلها الآن . .

بالأمس كنت أظن أن الحكومة وحدها هى التى تحمل لواء الظلم، واليوم أرى رجالاً من أبناء الشعب يرتكبون جرائم أبشع من جرائم الحكومة، ويتطوعون بالإيذاء، أو يمرغون أخلاقهم فى الوحل من أجل كسب مادى تافه «منك لله يا سعد الله» . . يبدو أن الفساد يمتد فى خيط طويل من سعد الله . . إلى الموظفين . . إلى «الحاج على» نفسه . . وإلى من هو أعلى وأقوى من الحاج على . .

وأنا أقضى عمرى باحثًا عن مأوى لا تطولنى فيه شرارات الظلم والإيذاء الحارقة . . .

***

ظللت أسبوعًا أنتظر ، كنت طوال الوقت أفكر فى النتيجة المحتملة ، فالتحقيق على الرغم من أنه لم يصل إلى إدانة مقنعة لشخصى ، إلا أنه أثار حولى مزيدًا من الشبهات ، وهذه الشبهات وحدها تكفى لإعادتى إلى المعتقل مرة أخرى ، بعد خروجى منه ببضعة شهور ، وهو أمر يحزننى أشد الحزن ، ويبعث فى نفسى الأسى العميق ، وتعود بدرية المسكينة للمعاناة ، وتبحث هدى عن أبيها فلا تجده ، ويحتل مكتبي فى الشركة رجل آخر ، وأصبح مجرد ذكرى طريفة للفنانة «صافى» وقد يتألم الحاج على لفراقى ، فالرجل لا شك كان يقدر كفاءتى ، لكنه كان يضيق بأسلوبى المتزمت كما كان يسميه ، لكنى واثق أن «المعلمة بسبوسة» سيوجعها قلبها ، وقد تتساقط دموعها ، إنها صلبة ، وقادرة على مجابهة كوارث الزمان ومتاعبه ، لكنها تعرف بفطرتها المواقف التى تستحق أن تذرف فيها الدموع . . «آه . . هأنذا أعود إلى الوراء وهل السجن إلا انتكاسة . . فكيف أستطيع أن أشيد بناء مستقبلى ، والزوابع تحاصرنى ، ومعاول الهدم تدمر كل لبنة أضعها ، وتفسد كل ما شأنه أن يعلو بالبناء؟؟» .

وبرغم المرارة التى تتكدس فى أعماقى، إلا أن نفحة من السعادة مرت مرورًا عابرًا بخاطرى، تذكرت بعض الإخوة الأوفياء هناك فى الحبس، فخفق قلبى حبًا لرؤياهم. . هذا هو الخاطر الذى أبهجنى للحظات. . إننى أستعيد صورة وجوههم السمحة، وابتسامتهم الطاهرة، وتعليقاتهم المرحة فى الحب الأسود، وأتذكر صلاة الجماعة، . وقراءة القرآن والمأثورات النبوية، أتذكر ذلك فأشعر بقدر كبير من الحنين. . قلت لنفسى وأنا أنفض عن قلبى وكاهلى أثقال الحزن والخوف واليأس: الأرزاق على الله. . والأعمار بيد الله. . وما قُدرَ سيكون، وليس من المكتوب هروب. . وهل هناك طريق للتعامل مع هذه الأحداث غير ذلك؟؟ إنهم يلعبون معنا لعبة «القط والفأر». . لكن اللعبة طالت حتى أنهكت القوى، وذابت النفس أسى، وفقد الموت هيبته ورهبته. . لطول البقاء انتظارًا له. . وبالتالى فقد أصبح التفكير فيه أمرًا مملاً. . إنه آت لا محالة، ولا تعرف متى ولا كيف يأتى، وليس للإنسان دخل فى تحديد أو معرفة ذلك. . فلماذا أفكر فى أمر خارج الطاقة والإرادة؟؟

صباح أحد الأيام أكلت وشبعت، ثم صليت «الضحى» كنافلة محببة إلى نفسى. . وتلوت بعض الأوراد، وجال بخاطرى معنى عظيم. . تذكرت الحديث القدسى الذى يقول فيه رب العزة: «ومن

ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى..» . . يا إلهى أستوعب هذا الحديث استيعابًا كاملاً لأول مرة على الرغم من أنى سمعته عشرات المرات بل مئات المرات، وأشرقت روحى بالفرحة عندما تأكد لى أن الله سيذكرنى فى نفسه، عندما أذكره فى نفسى . . فلماذا لا أظل أذكره طول الوقت . . أى شرف عظيم!! لو عاش الناس فى رحاب هذا المعنى الطاهر؛ لانعدم الشر، واختفى الظلم، وعمت السعادة كل الأرجاء . . .

ودق الباب دقات خفيفة . . وابتسم الرجل الذى فتح، وقال :

- «مبروك يا بك . . » .

لم أصدق أذنى، «مبروك»؟؟ كيف؟؟ و«بك» أيضًا؟ ما الذى جرى؟؟ هل حدث انقلاب!! مستحيل أن يفرجوا عنى بهذه السرعة!! إن الأمر ضد كل توقعاتى السابقة التى كانت تنضح باليأس والمرارة . .

- «أتسخر منى؟؟»،

قال بصوت خفيض :

- «إنها بشرى حقيقية، لكن أرجوك إذا ذهبت إلى المكتب الآن، فتظاهر بأنك لا تعرف شيئًا وإلا أوقعوا بى العقاب . . » .

كنت أسير خلف «السيد» فى طريقى إلى المكتب، تواكبنى

أفراح قدسية تسرى فى كيانى إلحانًا عذبة، وأمنيات وردية، عاد إلىّ الأمل، وانتشيت بقوة سحرية خارقة، كنت أدق الأرض بعزم وثبات، ووجهى يتطلق بشرًا . .

نظر إلىّ الحارس، وقال :

- «تحفّظ . . وتذكر ما قلته لك . . » .

حاولت أن أتصنع الحزن والكدر، ولا أدرى هل فشلت أم لا، يا فرحتى . . سأفاجئ بدرية مفاجأة كبرى لا تخطر لها على بال؟ ستراني بشحمى ولحمى أمامها، وستبكى كالعادة من الفرح . . وتعود لتقول لى للمرة الألف : «لا بد أن نسافر . . » .

دخلت المكتب . . كانت عيناى مركزتين على الرجل الفارع الطول الجالس خلف الطاولة الأنيقة ذات المفرش الأخضر، لم أر غيره على الرغم من وجود آخرين لم أنتبه إليهم إلا فيما بعد . .

قال البك بعنجهية :

- «مبسوط يا عبد القادر؟؟» .

- «الحمد لله . . » .

- «ألا تريد شيئًا؟؟» .

- «البركة فيكم يا بك . . » .

قال بجدية وحزم:

- «أنت أخطأت خطأ جسيمًا يا عبد القادر».

قلت وقد ارتج عليّ تمامًا:

- «أنا؟؟».

- «نعم أنت.. لم تخبرنا أنك خطيب الفنانة الكبيرة «صافى»..».

هممت بأن أجيب، لكن صوتهما تهادى ساحرًا مؤثرًا كأنها فى مشهد سينمائى مثير:

- «لقد تعاهدنا على الكتمان.. كان هذا هو الاتفاق الذى بيننا..».

نظرت صوبها، كانت تجلس متألقة، وإلى جوارها الحاج على محمود، وقلبى يخفق:

- «لم أرك عند دخولى..».

قامت وصافحتنى بحرارة، وكذلك فعل الحاج، وأخذت «صافى» تتحدث عن استقامتى وإخلاصى ومواهبى الفذة، وعن طلاقى الأبدى للسياسة والماضى ورعونة الشباب، وتفرغى الكامل لعملى ومستقبلى، وثقتها الكبرى بأنى سأكون أشهر مهندس فى البلد، كما أخذت تقسم وتؤكد إيمانى العميق بحب الرئيس

وفلسفة الثورة، والقرارات الاشتراكية، وتصفية الإقطاع، والرأسمالية الوطنية، وقوى الشعب العاملة. . . وغير ذلك من الشعارات الكثيرة.

قال البك الكبير بعد حديث طويل متشابك:

- «ما دام معك، فنحن على اطمئنان كامل لسلوكياته. . والآن يمكنه الانصراف معكم. . ».

وهب واقفًا وقال يصافحنى بيده الناعمة اللدنة:

- «مبروك يا باشمهندس. . كنا على وشك أن نرسلك إلى معتقل «طرة» مرة أخرى. . لولا أن الفنانة الكبيرة «صافى» ضمنتك. . ».

كنت أغادر مبنى المخابرات مهرولاً تائهًا، وكان وجهى شاحبًا ولحيتى غير حليقة وملابسى غير متسقة، ودلفنا إلى سيارتها الفارهة، وذهب الحاج إلى سيارته، وضمت يدى إلى يدها وهى تقول:

- «إن منظرك هكذا رائع. . رائع. . يذكرنى بأحد أبطال الأفلام الفرنسية. . ».

كانت يدى باردة ترتجف، وأنا أجلس إلى جوارها كالنائم نومًا مغنطيسيًا. . وقالت:

- «كنت أحلم بك ليل نهار».

- «أشكرك..».

- «كأنهم أخذوا روحى منى يا عبد القادر.. كنت كالمجنونة.. تصورت.. اتصلت «بالمشير» شخصيًا.. قلت له إما أن تطلقوا سراحه، أو تأخذونى معه.. كنت جادة فيما أقول.. كان وقع الخبر علىّ كالصاعقة عندما أخبرنى به الحاج على.. طوال هذا الأسبوع لم أكف عن الحركة.. كنت على استعداد لأن أذهب إلى السيد الرئيس نفسه لو حدثت عراقيل فى طريق الإفراج عنك..».

وتنهدت فى سعادة قائلة:

- «الحمد لله..».

كنت صامتًا شاردًا، جذبتنى من ذراعى فى دلال قائلة:

- «لماذا لا تتكلم؟؟ انظر إلىّ..».

نظرت إليها.. كانت كالزهرة الندية التى تتفتق حيوية ونضارة.. وأرخيت أهدابى خجلاً، قالت:

- «تذكر أنك خطيبى.. وأن هذا أصبح مسجلاً رسميًا فى المخابرات.. أنت تعرف.. وستتزوج الليلة.. لقد أعددت كل شىء..».

قلت فى وهن:

- «وبيتى؟؟».

- «أصبح لك بيتان، ولن أفرق بينك وبين أسرتك. . هذا عهد علىّ. .».

مرت الليلة كالحلم. . جاء الحاج على بالمأذون، ووقع كشاهد ومعه عم جابر السائق، وأكلت وشربت دون وعى، ولبست بدلة جديدة أحضروها لى بهذه المناسبة. .

عشت ليلة أشبه بالليالى التى يتحدثون عنها فى كتب الأساطير القديمة، موسيقى وغناء وأضواء خافتة حمراء. . وشواء وعطور. . وأيكة من ورود وفواكه وأشواك. . كانت تهمس فى أذنى همسات دافئة: «كل شىء يمضى حسب الشرع. .» قبيل الظهر جلسنا نتناول طعام الإفطار، قالت:

- «ها قد أصبحت لك».

نظرت إليها فى إمعان، كانت جميلة وفاتنة، لكن هل أصبحت لى أم أصبحت لها!! لا يهم. . لقد تزوجنا. . فلنفرح وضحكت. . قالت:

- «اضحك من قلبك. .».

- «من كل قلبى. .».

- «أنا أعرف ما يسرك. . وسأفعل المستحيل لإسعادك. .».

قلت فى شىء من الاهتمام:

- «لماذا أنا بالذات؟؟».

- «هذا موكول لسلطة عليا لا نعرف كنهها».

- «من هذه السلطة؟؟».

قالت وهى تشير إلى صدرها:

- «قلبى..».

وصمتت برهة، ثم استطردت:

- «أحيانًا كثيرة أعجز عن معرفة الأسباب الحقيقية، وعندما أشعر بالإجهاد الفكرى.. أهمل الأسباب، وأندفع بكل كيانى إلى أحضان الحقيقة الحلوة.. أنت الحقيقة يا عبد القادر.. وأنا أحبك... ولا شىء غير ذلك».

كلما فكرت فى بدرية ازددت غمًا على غم.. ماذا أقول لها، لو عرفت ما حدث؟؟ إن امرأة فى ظروفها لا تستطيع أن تتقبل أية مبررات تقدم لها.. بل لا يمكنها أن تتلقى مجرد خبر كهذا، فماذا أفعل إزاء هذه المأساة؟؟ ألم يكن أروح لنفسى وعقلى أن أعود مرة أخرى إلى معتقل «طرة»؟

لست أدرى لماذا أعود إلى التفكير فى تلك القضية الأزلية.. قضية الجبر والاختيار.. هل أنا مسيّر أم مخيّر.. وضحكت لأنى

أعرف قبل غيرى أن القضية ليست على هذا النحو . . هناك أمور أستطيع أن أفعلها أو لا أفعلها . . كأن أتحرك وأتكلم . . وأرفض وأقبل . . لكن قلبى يدق دون إرادتى . . والمعدة تهضم الطعام . . والدم يسرى فى عروقى . . والمسئولية بنت الحرية . . من ينكر أننى كنت قادرًا على أن أقبل الزواج أو أرفضه؟ كنت فى وهدة اليأس القاتل، لم أعد أرى بصيصًا من النور، لكن يدًا امتدت إلىّ فجأة لتنجدنى . . أمسكت بهذه اليد دون تفكير . . كان لابد أن أعيش . . فالحياة لها جاذبية وسحر من نوع غامض غريب . . لا تسألونى عن السر . . فأنا لا أعرف . . وفى أوقات الضعف و الوهن أرانى أتصرف بغريزتى . .

إننى لم أستوعب الموقف بعد . .

●●●



توارى التهيب والانبهار، وسكنت عواصف التمزق والحيرة، وانجلى الصبح عن وجهها العابث الفاتن الذى لم يخلق إلا للاستمتاع والنشوة والفن، إن صافى نموذج فذ للمرأة التى لا تكترث للخوف، ولا تخجل من الانطلاق، وليس هناك فى عقلها وروحها إلا حقيقة واحدة هى إنها تعيش فى هذه الدنيا الجميلة، وليس قبل ذلك شىء ولا بعده شىء، إنها بنت اللحظة، تقول لى:

- «الجنة والنار هنا».

قلت لها دهشة:

- «ألا تؤمنين بأن بعد الحياة.. حياة؟».

- «هذا غيب مجهول.. وأنا لا أؤمن إلا بما ألمسه..».

- «هذا هو عين الإلحاد يا صافى..».

- «لكنى أؤمن بالله..».

قلت لها فى غيظ :

- «لا تتحدثى عن الله . .» .

- «الله ليس لك وحدك . . بل لنا جميعًا . .» .

- «أثبت الله فى كتابه يا صافى كل الحقائق الأذلية . . ومنها الحساب والعقاب . . والدنيا والآخرة . . والجنة والنار، والجن والملائكة . . والأنبياء والرسل والرسالات . . وأنت يا صافى تؤمنين بالله، وتنكرين حقائقه . . تؤمنين ببعض الكتاب، وتكفرين ببعض . .» .

طوقتنى بذراعيها فى وله، وقالت :

- «لو لم أكن مؤمنة لما تزوجتك على سنة الله ورسوله . .» .

- «هذا الجدل العقيم لا أحبه . .» .

- «لماذا تضيق بالجدل؟؟ ألا يجوز أن يكون بابًا للهداية؟؟» .

توقفت عند عبارتها تلك، إنها تفتح باب الأمل فقد تنضجها التجربة، فتستقيم رؤيتها للحقائق الأزلية، وتكتمل لديها الصورة المثلى للإيمان الصحيح من يدرى؟؟ لقد هدأت الزوبعة، وأصبح جو البيت مألوفًا لدى، ويبدو أنها كانت تذهب بعيدًا فى الآونة الأخرى لتشرب قدراً من الخمر خفية، كما أنها كفت عن استقبال أصدقائها من الرجال فى البيت، وتفرغت تمامًا لشهر العسل . .

كنت قد رويت لها ما حدث من عامل البوفيه «سعد الله»، وأبنت لها عن أهمية الوصول إلى دوافعه الخبيثة، فاتصلت بالحاج على وشرحت له الأمر، وعلمت فيما بعد أن الحاج قد طرده من الخدمة وأعطاه حقوقه القانونية، كما طرد معه اثنين من العاملين فى الشركة أحدهما مهندس والآخر فى الإدارة؟ وذلك لتورطهما فى تدبير المكيدة ضدى، وشعرت بالارتياح بعد أن اتضحت لى الحقائق، لكن الذى آلمنى هو أن ماضىَّ السياسى سيظل دائمًا وأبدًا سيفًا معلقًا فوق عنقى، ومن ثم فإن الحاقدين وضعاف النفوس سيلجأون إلى إشهاره كلما رأوا ذلك فى صالحهم، وهذا نوع من الظلم أليم.. ويبدو أنه مأساة لا حل لها، فماذا يمكن أن يكون مصيرى لولا اهتمام «صافى» بأمرى، ومتابعتها لما جرى لى، وبذلها الجهود الخارقة لإنقاذى؟؟ مهما كان استغلت الظروف، ودفعتنى دفعًا بدهائها وانتهازها الفرص إلى الزواج منها، وهل ألومها على أنها أحبتنى هذا الحب الجنونى الجارف؟؟

إننى واثق أن «بدرية» سوف تتألم كثيرًا لو علمت بما جرى، لكنى واثق أيضًا أنها سوف تحاول التماسك، وتصبر كعادتها حتى يأتى الله بالفرج، فهى ليست من النوع الذى يفر أو يفقد صوابه، ويتصرف تصرفات هوجاء، أنا أعرفها، سوف تأوى إلى عشها الصغير كحمامة وديعة حزينة، وتضم ابنتها إلى صدرها، وتسكب الدموع تلو الدموع.. ولن تقتنع بدرية بأية مبررات أقدمها لها، بل

إنى حريص على ألا أبدو أمامها مستسلمًا لإرادة امرأة ماكرة، عنيقة المشاعر، ملتهبة الرغبة، فالأفضل أن يبدو الأمر وكأنه زواج طبيعى لا قهر فيه، لعبت فيها العواطف دورها المألوف فى طبيعة البشر . .

قالت صافى:

- «هل أنت سعيد يا عبد القادر؟؟» .

قلت فى شىء من الشرود:

- «لقد صنعت منى حيوانًا سعيدًا» .

أخذت تضحك ثم قالت:

- «هذا هو المطلوب» .

- «تنسين أننى افتقدت فى كيانى روح الإنسان» .

- «محاولة منك للهروب من الواقع، وذلك إرضاء لما فى نفسك من عواطف نحو زوجتك . . » .

- «ليكن . . » .

قالت فى دلال:

- «إنه هروب متصنع . . » .

- «أنت شهوانية . . ميتة القلب . . » .

- «القلب الذى يحب لا يموت يا عبد القادر . . » .

- «أتسمين هذا حبًا حقيقًا؟؟».

- «بما أسميه إذن؟؟».

- «شراهة.. جوع.. نذوة..».

قالت وهى تتثنى فى ميوعة:

- «خلق الله الجوع.. وخلق الشبع... وأنت تحب الطعام بجنون وأنت جائع.. إنه حب على أية حال..».

ثم جرت صوب ركن الغرفة، وأحضرت الرق وأخذت تدق عليه فى مهارة، وترقص وتغنى بصوت مثير وتردد:

اشرب شرابْ

وكُلْ كبابْ

ويا الأحباب

يا نور عنيّا

لوّعت قلبى

شعللت حبى

مش قادرة اخبى

يا نور عنيّا

أنت يا روحى

بلسم جروحى

يا سرّ نوحى

يا نور عنيّا

الستائر الرقيقة الحمراء على النوافذ تتماوج مع نسيم خفيف، والضوء الخافت الأحمر ينعكس على وجهها الأسطورى المثير، فتغدو الظلال وتجيء فى نغم ضوئى لم أعرفه فى حياتى قط وأشعر أن هناك سكرًا بغير خمر، وأحلامًا أرجوانية فى الصحو، وأنساق إلى هواها العربيد كالمسحور، فتقول لى:

- «تذكر دائمًا أننى حلالك..».

وأنا أغوص فى دنياها المستعرة والصاخبة وأتمتم: «أعرف». وذات صباح قالت لى بهدوء غريب تحسد عليه:

- «لقد مضى على زواجنا أكثر من أسبوعين، وأنا لا أحب أن أرتشف الكأس حتى الثمالة.. سوف نفترق مؤقتًا ونحن فى قمة الحب.. لسوف أقوم بتصوير فيلم جديد مشترك فى أوربا، وسيكون غيابى لمدة شهر.. وأجرى فى الفيلم مبلغ كبير جدًا، والحياة يا حبيبى ليست متعة دائمة مستمرة.. لا يصح أن ننسى

العمل . . وعندما أعود ستكون فى انتظارى . . وسأظل أحلم بيوم اللقاء . . » ووجدتنى أصيح كطفل انتزعوا منه لعبته التى سلبت لبه :

- «ولمن تتركينى؟؟» .

ضجت ضاحكة فى سعادة ونشوة كبرى ، وقالت :

- «لزوجتك الأولى . . ولعملك فى الشركة . . » .

تسربت فى أعماقى مرارة يخالطها الندم ، وقلت :

- «أنا زوجك ، ولا يصح أن تسافرى إلا بأمرى» .

- «لا أعتقد أنك تعارض ، فلم نشترط فى عقد الرواج أن أهجر التمثيل . . وأنت تعرف تقديسى للحرية . . أنا فنانة والفن هو الحرية الحقيقية . . » .

نظرت إلى وجهها الرائع السعيد ، وعينيها اللتين تشعان حيوية ومرحًا ، وقلت بحرارة :

- «لسوف أفتقدك . . » .

نظرت إلىّ بإمعان وذهول وهتف فى سعادة :

- «أتحبنى حقًا لهذه الدرجة؟» .

- «أنا لست ممثلاً ، ولا أجيد حفظ الأدوار والكلمات . . » .

ارتمت على صدرى ، وتشبثت بى قائلة :

- «هذه اللحظات من أسعد لحظات حياتى . . » .

ثم أفلتت منى قائلة :

- «عندى فكرة . . أتأتى معى؟؟» .

فغرت فىَّ من الدهشة ، وقلت :

- «إنه أمر عسير المنال . . » .

- «لماذا؟» .

- «لأنى ممنوع من السفر . . اسمى فى القائمة السوداء . . » .

هززت رأسها ثم فكرت قليلاً ، وأسرعت قائلة :

- «هذا أمر بسيط . . أستطيع أن أضمنك . . وبالطبع لن تخدعنى وتهرب منى فى الخارج . . عندئذ يحضرونك مخدراً فى جوال بالحقيبة الدبلوماسية . . » .

توارى النهار خلف أكمة من الأشجار الضخمة الملتفة فى طرف حديقة القصر ، وجلست وحدى تحت الضوء الخافت ، أستمتع بالتفكير حلوه ومره ، وأنظر إلى السماء العالية وأستمع إلى همسات الغصون وغزل الطيور القابعة فى أعشاشها ، ووجدتنى أنهض وأتوضأ من حوض النافورة القريب ، ثم أفترش العشب وأصلى . . ما أوسع الفارق بين الأمس واليوم ، أخذت أتخيل بدرية الصافية النقية ذات الوجه الملائكى ، وهى تتحدث إلىّ . .

كانت كلماتها تخرج من بين شفتيها عذراء طاهرة. . لم يلوثها كذب أو ادعاء. . وأتذكر هدى الصغيرة وهى تلعب فوق كتفى، وتشد شعر رأسى، وتهز رجليها الصغيرتين وتقول: «حا. . يا حمار» كانت كلماتها البريئة كالسكر. . ونبراتها كشقشقة العصافير، بالأمس قالت لى صافى:

- «أريد أن أصلى معك. .».

نظرت إليها مستغربًا، قالت:

- «وأريد أن أفتح لله قلبى. . ربما يضع فيه قبسًا من النور. . فأصبح مثلك. . سمعتك تقرأ فى صلاتك ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. . أليس هذا من القران؟؟».

قلت دون حماسة:

- «بلى. .».

اندمجت فى الصلاة، وهى ورائى بكامل زيها المحتشم، كنت مستغرقًا فى القراءة الجهرية، وكنت أتلو الآيات الأخيرة من سورة «يس». .

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٩-٨٣].

وسمعت من خلفى شهقات، وما أن انتهت الصلاة حتى وجدت الدموع عالقة بأهدابها، أخذتنى الدهشة، أية امرأة هذه قلت مستغربًا:

- «أتبكين؟؟».

- «على الرغم منى!! دخلت الكلمات المقدسة إلى قلبى واعتصرته.. كدت أختنق.. خفت أن أموت.. تخيلت العظام والهياكل الآدمية المبعثرة.. فى يوم من الأيام سيزول كل شىء، ولا يبقى منها إلا بقايا كالأغصان الجافة.. وقطع الخشب المتآكلة.. حيث لا جمال ولا عيون أو ثغور أو نحور.. أكل شىء يذهب؟؟ وبكيت.. وبكيت على نفسى..».

قلت فى نفسى هذا شأن الممثلين دائمًا، قد يندمجون فى الأدوار التى يشخصونها، وينسون ذواتهم، ويعيشون وقتًا قصيرًا فى

الوهم، لكنهم سرعان ما يعودون إلى طبيعتهم، فيعبثون ويلهون ويغوصون حتي آذانهم فى الوحل . .

قلت :

- «تستطعين أن تمثلى دور العابدة الخاشعة «رابعة العدوية» بمهارة فائقة . . » .

صرخت فى حدة وغضب :

- «أنا لا أمثل . . هذه دموع حقيقية» .

نظرت إليها فى شك، فعادت تقول :

- «الله وحده يعلم . . ولا يهمنى أن تصدقنى أو لا تصدق . . » .

- «هذا يسعدنى يا صافى . . » .

وأخذت تسألنى عن شرط الإيمان الصادق وعن القضاء والقدر، وعن الجنة والنار مرة أخرى، وعن الروح والجسد، وتتمعن فى النصوص والأدلة التى أقدمها لها، لكن الذى أثار دهشتها هو مطاردتى واعتقالى، على اعتبار أن ما أقوله لا يمكن أن يشكل جريمة من الجرائم، وكان هذا بداية لحديثنا عن العدل والحرية والحكم فى ضوء تعاليم الإسلام، وكانت تفتح عينيها وأذنيها بشغف غريب، وتؤكد لى أنها لأول مرة تحاول التقصى والتعمق فى

مثل هذه الأمور، وهكذا استمر حوارنا حتى أشرقت الشمس، فأوينا إلى مخادعنا كى ننام. .

●●●

كنت سعيداً حينما أخبرتنى «صافى» بأنها استطاعت بعد جهد جهيد أن تحصل لى على موافقة بالسفر إلى الخارج، وطلبت منى الذهاب على الفور إلى مصلحة الجوازات لاستخراج جواز السفر، وأخذنا بعد ذلك نعد العدة للسفر إلى «باريس»، وكانت صافى تخرج وحدها لإنجاز بعض الأعمال الفنية المحدودة، وتعود فى وقت متأخر بعض الشىء إلى البيت. .

وصحوت من نومى ذات صباح مبكراً، ولفت نظرى وجود قلم وورقة على الطاولة الصغيرة الملاصقة للسرير، تناولت الورقة. . إنه خط صافى. . كانت تقول:

- «زوجى الحبيب عبد القادر كان لا بد أن أسافر وحدى. . وأنا مقتنعة تمام الاقتناع بما فعلت. . أتعتقد أنه من العدل أن تترك زوجتك وابنتك وهما يتألمان لفراقك ويظنان أنك ما زلت معتقلاً؟؟ ثم أن هناك بشرى سوف تسعد قلبك أيما سعادة. . لقد وضعت زوجتك مولداً ذكراً وأسمته «أحمد». . فلتذهب إليها على الفور. . لأنها فى أمس الحاجة إليك. . وألف مبروك. . وقبل أن أعود سوف أرسل إليك برقية عاجلة من باريس، كى تنتظرنى فى

المطار . . نسيت أن أقول أن الحاج على قام بالواجب نحو الوالدة والمولود بتكليف منى . .

تحياتى . . وإلى اللقاء»

«صافى»

طويت الرسالة . .

كنت كالمجنون، إننى ألبس حلتى فى عجلة، وأتعثر هنا وهناك باحثًا عن الحذاء والجوارب، ثم أهرول خارجًا من القصر، والسائق الخاص لصافى يجرى ورائى . .

- «يا بك . . يا بك»، وأنا ألوح إليه بيدى شاكرًا وأعتذر عن الركوب معه . .

وأخيرًا وصلت إلى الحى القديم . .

●●●



لكأنى لم أخرج من الحبس إلا اليوم، هذا هو شعورى الحقيقى، على الرغم من الأوقات الممتعة التى قضيتها فى قصر «صافى»، إن صافى فنانة مدربة تستطيع أن تصنع لنفسها الجو الساحر الذى تريده، مثلها فى ذلك مثل المخرج البارع الذى يحسن استعمال الحركة والإضاءة والصوت والديكور فى عمل فنى تمثيلى، ومن الغريب أن كل شىء يبدو وكأنه يسير سيرًا طبيعيًا فى اتجاهه الصحيح، إن صافى فعلاً ممثلة متمكنة من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وأنا لا أتصور كيف استطاعت أن تغرقنى بهذا «الفن» العجيب، وتجعلنى أعيش فى حلم لم أفق منه إلا على سفرها إلى الخارج، وبمجىء ولدى الحبيب أحمد. .

كان الجو مشمسًا دافئًا وأنا أتنفس الهواء بملء صدرى، وأقبل كل ما فى الشارع بنظراتى المشوقة وعند اقترابى من مقهى المعلمة بسبوسة، رأيتها تنظر إلىّ فى دهشة بالغة، فاتحة فمها. . وانتفضت واقفة وهرولت نحوى فى قلق، وسلمت فى حرارة وهى تقول:

- «هل أنت بخير؟؟».

قلت وأنا أكاد أبكى:

- «أحمد الله..».

- «طالت غيبتك».

- «وماذا أفعل؟؟ إنها المشيئة الإلهية..».

قالت وعيناها مغرورقتان:

- «لعنة الله على الظلم والظالمين..».

تلفت حولى فى حذر، متوجسًا خيفة أن يسمعنا أحد وقلت:

- «لكل ظلم نهاية..».

ربتت على ظهرى فى ود قائلة:

- «اذهب لأهل بيتك.. وليكن هذا آخر المطاف، فلا يأخذونك مرة أخرى..».

دلفت إلى البيت، صعدت السلم وقلبى يدق، سمعت بكاء الصغير المميز، ما أعذب هذا اللحن الخالد، كان صوته يتسرب إلى أذنى ضعيفًا واهنًا، وأنا أقترب من باب الشقة، وطرقت الباب فى رفق، لكأن بدرية كانت تقف وراءه، إذ سرعان ما انفتح الباب عن وجهها الشاحب الجميل، تطلق وجهها الطاهر بالفرحة، زغردت

وبكت فى الوقت نفسه، تلقفتها بين ذراعى فى شوق عارم لا يعرفه إلا من يكابده، ظلت متشبثة بى، ورأسها على صدرى، وهى تنتحب ويهتز جسدها النحيل، ولم أستطع أن أحبس دموعى أنا الآخر، لشد ما اشتقت إلى هذا العش الوادع الآمن، إنه جنتى فى دنيانا، إنه حسنة الزمان الذى اكتويت بنيران أحداثه لسنين طويلة..

وتمتمت بيت قديم من الشعر:

وكل مسافر سيؤوب يومًا

إذا رُزق السلامة والإيابا

قالت وهى تنزل يديها ثم ترفعها لتجفف دموعها بمنديلها الصغير:

- «أما لهذه الأسفار من نهاية؟».

- «وهل الحياة إلا سفر دائم يا حبيبتى؟».

قالت وهى تحاول الابتسام:

- «تعالى لترى ابنك.. إنه قطعة منك.. ويشبهك تمامًا.. إنه هدية العودة..».

كانت يرقد مغمض العينين، يمص أصبعه، ووجهه صغير مستدير، دقيق التقاطيع.. كل الجمال فيه.. وكل البراءة فيه..

انحنيت على سريره، وقبلت جبهته قبلة أودعتها كل ما اختزنه من عواطف هادرة، وأشواق مكبوتة، خيل إلى وأنا ألثمه بنظراتى أنه هدية السماء لقلب أحرقه العناء.. قلت له فى ابتهال:

- «يا وطنى الصغير..».

تمطى فى سريره، وكشّر دون أن يصدر عنه أى صوت ثم سكن مرة أخرى، وقلت:

- «يا زاد القلب المحروم..».

ردت بدرية:

- «كان ينتظرك على أحر من الجمر، ولما وجد أنك لست فى استقباله بكى بشدة.. قلت له لا تجزع يا صغيرتى.. فسوف يأتى أبوك.. لقد فاته القطار الأول، وسيأتى إليك فى القطار التالى.. لم يصدقنى.. كان يبكى ويتساءل أبى.. أبى.. أريد أبى.. وكنت أنظر خلال النافذة، إلى الأفق البعيد وقت الأصيل.. وأقول إنك قادم مع فجر الغد..».

نسيت الماضى القريب بكل أحزانه وأفراحه، أو خيل إلى ذلك، شبعت بمرأى الوليد وبدرية.. تساءلت: «أين هدى؟» وأخذتنى بدرية إلى غرفة النوم، رأيت هدى تناغى عروستها القديمة، وتقبلها وتضمها إلى صدرها، وهتفت زوجتى:

- «هدى . . هدى . . بابا . . ».

نظرت إلى هدى فى شىء من الدهشة لبرهة، ثم عادت إلى عروسها تقبلها، ولكنها عادت ووضعت العروس، وتحاملت على نفسها ووقفت، ثم جرت نحوى، فأسرعت بالتقاطها وحملها، وأخرجت لها ثلاث قطع من الشيكولاته دفعة واحدة، فافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة . .

تألمت إذ رأيت بدرية تخدم نفسها بنفسها، وأسرعت إلى المطبخ وأخذت تعد وجبة خفيفة من البيض المقلى والجبن والزيتون والسلاطة الخضراء والفول، وأقبلنا على الطعام فى شهية غريبة، لقد مللت الدجاج والحمام واللحوم، كما مللت قيود الأكل ونظامه فى قصر «صافى»، إننى أشعر بالحرية فى هذه البقعة الصغيرة، حيث لا قيود ولا شهود . . وعلمت من بدرية أن الجيران الطيبين ساعدوها فى الأيام الأولى للولادة، وبعد أيام خمسة اعتمدت على نفسها . . الآلام النفسية تمزق ضميرى، المسكينة لا تعلم بما جرى، لو أخبرها أحد بأننى تزوجت من «صافى» لأصيبت بالسكتة القلبية، وأنا أحمل فى قلبى هموم عصر، وأحزان جيل، أين المفر يا عالم السوء؟؟ والمصيبة أن بدرية ما زالت تنظر إلىّ وكأنى ملاك، أنا دنياها كلها ومعى هدى وأحمد . . آه . . عندما تدلهم الخطوب، وتتشابك الخيوط، ويضطرب نسق الوجوه الذاتى، أتلفت حولى باحثًا عن

مخرج . . ثم أرفع رأسى إلى السماء . . وسواء أنزل المطر، أو عصفت الريح، أو تبلد السكون، فإنى أستسلم لقضاء الله . .

جاءنى صوتها :

- «لماذا اعتقلوك هذه المرة؟؟» .

قلت ساخراً :

- «ولماذا اعتقلونى فى المرات السابقة؟؟ لو أن هناك قانوناً يحكم لعرف كل إنسان ما له وما عليه . . لكن الأهواء والشكوك والدسائس والمكائد هى التى تصرف أمور الملايين فى بلدنا . . » .

قالت بدرية :

- «إنى خائفة . . » .

تسارعت دقات قلبى وهتفت :

- «مم؟؟» .

- «لقد عم البلاء . . » .

تنهدت فى ارتياح، وقلت :

- «وهم يقولون عصر الحرية والرخاء والعدل . . لقد فرغوا الكلمات العظيمة من محتواها، وحشوها بالادعاءات والأكاذيب . . إنى أكرههم . . ولا بد . . لا بد أن أسافر . . » .

قالت بدرية :

- «ستظل دائمًا نحلم بالسفر . . وأحيانًا نشكو من السفر . . دع الملك للمالك . . » .

واظبت على عملى فى الشركة ، كان الحاج محمود على يعاملنى برقة غريبة ، ولا يرد لى طلبًا ، ودفع لى مرتب الفترة التى قضيتها فى الحجز مضاعفًا ، وقدم لى قطعة ذهبية كهدية لزوجتى بمناسبة المولود الجديد ، كما أخبرتنى زوجتى أنه كان يرسل إليها مع إحدى الموظفات كميات كافية من اللحوم والخضراوات والفواكه ، وعرض على بعض المشاريع الجديدة ، وبدأت فى عمل الرسومات المطلوبة على الفور ، كنت أشعر بشىء من الملل والضيق فى البداية ، لكنى سرعان ما استعدت لياقتى النفسية والفكرية ، وكان الموظفون فى الشركة يتعاملون معى بحذر ، ولا يثيرون أدنى مشكلة ، وأدركت أن طلباتى أمر ، ورغباتى للتنفيذ الفورى ، ولا مجال لمناقشة أية فكرة أطرحها ، ويبدو أنهم يعرفون الكثير عما جرى ، إننى أرى ذلك فى نظراتهم وحركاتهم ، لكنهم حريصون أشد الحرص على إرضائى . .

وكان الحاج يصطحبنى فى كثير من الجولات ، ويحرص على الاستنارة برأى فى كل الأمور المهمة ، وحاول مرارًا أن يؤكد لى ازدياد ثقته بى ، واعتماده الكامل على وجهة نظرى ، وحاول أن

يبث فى روحى أن الزواج بأكثر من وحدة أمر طبيعى، ويحدث كثيرًا، وأن الزواج من صافى مسألة لا غبار عليها، فهى امرأة جميلة محترمة، وفنانة محبوبة، وذات كلمة مسموعة، وفى إمكانها أن تساعدنى فى حل جميع المشاكل التى تعترض مستقبلى، وعتب على تجهمى وشرودى، وزعم لى أن الأمر فى غاية البساطة، وأنه لا يخلو من جمال وطرافة، وفى حدود الشرع والقانون، ولا يصح أن أجرح إحساس السيدة صافى التى أحبتنى حبًا ملك عليها نفسها، وأنها جديرة بالشكر، لا باللوم والعتاب. . وهل فى الحياة لذة تضارع تلك اللذة التى يشعر بها الرجل حين يرى امرأة جميلة قديرة مثلها تغرق فى حبه حتى أذنيها؟؟

واستبدت بى الدهشة حينما عرض على الحاج أن أكون المدير العام للشركة، وهو أمر لم يخطر لى على بال قط، إن المدير الحالى رجل مسن، ذو خبرة طويلة ودراية بالعمل، ولم يصدر عنه ما يشينه . . ومهما كانت كفاءتى وعلمى إلا أننى أحتاج لسنوات طويلة فى حقل العمل حتى ألم بكل صغيرة وكبيرة فيه، وفى العمل أيضًا الكثير من الأمور التى لا أستطيع إتقانها، بل ولا ينتظر أن أستطيعه فى المستقبل، فعمليات المناقصات، وتوفير الاحتياجات والمواد الخام، وضرب المنافسين فى السوق، والتحايل للحصول على أكبر قدر ممكن من الربح، كل هذه الأشياء تجعلنى متحرجًا، ولا يمكن أن أخوض فيها بجسارة، إن الضمير والربح قطبان

متنافران فى عالم المال والتجارة، وهذا ما أراه رأى العين فى الغابة التى أعيش فيها. . إننى أعرف جيدًا المجال الذى أستطيع أن أحقق النجاح فيه. . التصميم. . والإشراف، ولا شىء غيرهما، أما الإدارة العامة وما يتعلق بها من أمور، فهى شىء لم أخلق له. . وبعد روية فى التفكير اعتذرت للحاج، لكنه قال:

- «عذرك مرفوض. .».

- «هذا حقى. .».

- «لتعلم أن السيدة صافى أصبحت شريكتى. . لها رأيها فى الإدارة. . وأمامنا أعمال كبيرة تحتاج للملايين من الجنيهات. . الأمر جد لا هزل فيه. . وقد نأخذ بعض المناقصات الخاصة بالمنشآت الحكومية، والجيش أيضًا. . أتدرك خطورة الأمر؟؟ وأنت والحمد لله اجتمعت فيك صفات لا تتوافر لغيرك. . فأنت أولاً زوجها، وهى صاحبة جزء من رأس المال، وثانيًا: كفاءتك العلمية التى لا يمارى فيها أحد، وثالثًا: إخلاصك الذى لا تشوبه شائبة. .».

وصمت الحاج برهه، ثم مال على أذنى هامسًا على الرغم من عدم وجود أحد معنا:

- «إن وراء السيدة صافى رؤوسًا كبيرة. . أتفهم؟؟».

تصنعت الغباء قائلاً :

- «لا أفهم شيئًا ألبتة» .

- «ألم تخبرك ببعض التفاصيل؟» .

- «كلا . .» .

- «لا يخفى عليك أن بعض الضباط الكبار ، بل وبعض الوزراء يشاركون فى الاستثمار كل حسب إمكاناته . . منهم من يدفع مالاً ، ومنهم من يسهل لنا الأمور ، ويحصل لنا على ما نريد ، والبعض الآخر يتفرغ لتخليصنا من أية ورطة نقع فيها . . إننا نعمل على أعلى مستوى . .» .

استبد بى الخوف ، إننى أندفع إلى متاهة تنشر فيها الغيلان والثعالب ، وأنا رجل ضعيف لا أحتمل ركلة قوية ، ولماذا أنا بالذات؟؟ لماذا وأنا المشبوه سياسيًا؟؟

قلت للحاج :

- «أنت تعرف ظروفى ، والمباحث والمخابرات ورائى ، لسوف يسبب لكم ذلك مزيدًا من الإرباك والاضطراب ، ماذا يكون مصير العمل لو اعتقلت فجأة كما حدث؟؟» .

ابتسم الحاج فى ثقة ، وقال :

- «زمن الاعتقال بالنسبة لك انتهى إلى غير رجعة . . » .

ثم أشعل سيجارة واستطرد :

- «وأنت بالذات- كما قلت لك- عملة نادرة، ولن نجد رجلاً فى مثل قناعتك وطهارتك وإخلاصك . . حتى جهات الأمن يؤمنون بذلك . . وهم الذين بيدهم الأمر . . » .

ويزفر الحاج الدخان الكثيف فى سعادة، ويقول :

- «سيكون مرتبك الشهرى أربعمائة جنيه على الأقل، بالإضافة إلى نسبة معينة من الأرباح . . » .

لا أنكر أن الرقم كان كبيرًا، بل مبالغًا فيه، إننى لا أكاد أصدق ما تسمعه أذناى، إن رئيس الوزراء لا يحصل على هذا المبلغ، ولا أدرى كيف تصل بى الأمور فى النهاية، إننى أبلغ الغاية فى فترة زمنية خيالية، أية حماقة تجعلنى أرفض هذا العرض؟؟

إن الأمر لا يصح أن يعالج على هذا النحو من التعجل، فهى فرصة العمر، وقد لا تتاح لى مرة أخرى، إن قرارى يجب أن يكون حكيمًا . . ولأبحث عن أوجه الاعتراض التى تثار فى رأسى، ولأفكر هل لها حل أم لا؟؟ هذا هو العقل بعينه . .

●●●



إشـــراقــة وجــه أحـــمـــد أثمن عندى من كل كنوز الأرض، والكلمات المتعثرة فى فم هدى تسكر روحى، والنقاء والطهارة والجمال على ملامح بدرية، تجعلنى ساجداً لله، هل فى الوجود نعمة أعظم من ذلك؟؟ الفرحة الغامرة أنستنى الليالى التعسة فى ضيافة المخابرات، كما كادت تطمس علىّ ذكريات شهر العسل القريب، لشد ما أحار فى تفسير مشاعرى وانطباعاتى!! كلما قطعت شوطًا فى أعماق نفسى ازددت حيرة وجهلاً، ما هى حقيقة رغباتى وتطلعاتى؟ نفسى هى مملكتى لكنى أتخيل فى أوقات عصيبة كثيرة، أهناك قوى أخرى غازية لها النفوذ فى مملكتى.. مملكتى التى لم أتجول فى بعض مناحيها وأطرافها بعد.. أيتها الدروب المعتمة متى تكشف لى الحقيقة الكاملة عن وجهها؟ وحتى العالم من حولى ممتلئ بالغموض والأسرار، على كل وجه قناع، وكأننا نعيش جميعًا فى حفلة تنكرية، وأحيانًا تبدو الأمور غاية فى البساطة والوضوح، وأحيانًا أخرى تواجهنى الحياة معقدة غاية

التعقيد . . الطفل الذى فى داخلى يكاد يموت . . لشد ما كنت سعيدًا بهذه الطفولة الحلوة، لكن التجارب المريرة قد استطاعت بأظافرها الحادة أن تحفر الأخاديد فى بشرتى الغضة، حتى ليخيل إلىّ أننى أصبحت شيخًا عجوزًا أحنت ظهره السنون . . ويكاد اليأس يحطمنى لولا إيمانى بالله، ولولا تلك الواحة الظليلة فى مسكنى الصغير . . وسبحان مقلب القلوب والأبصار . .

وكلما شعرت بالبلبلة تؤرق فكرى سارعت إلى بدرية أحاورها وتحاورنى، أو أجلس لمداعبة هدى، ومناغاة أحمد، ورويت لبدرية قصة اعتقالى من البداية للنهاية وبالطبع لم أخبرها بموضوع زواجى، ومع ذلك فقد توقفت طويلاً عند «صافى» لماذا اهتمت بأمرى، وتوسطت لى عند المسئولين، ومَنْ هى حتى يكون لها هذا النفوذ وهذه الحظوة؟ أسئلة كانت بدرية تطرحها فى غيظ، وكانت إجاباتى على تساؤلات بدرية تزيدها ضيقًا وغضبًا، لم تقتنع أبدًا بأن ما فعلته «صافى» كان من باب العطف على إنسان مظلوم لا حول له ولا قوة، كما لم تقتنع بأن «الفيلا» التى صممتها و أشرفت عليها هى الدافع الأساسى لتدخلها، والأمر الذى أثار حيرة بدرية أكثر وأكثر هو الشكوى الكيدية التى تقدم بها ضدى عامل البوفيه «سعد الله» . . وعندما أخبرتها أن الحاج على محمود قد طرده شر طردة، أبدت رغبتها فى أن نبحث عن هذا الرجل ونتفاهم معه، فقد يكشف عن بعض الغموض، لكنى آثرت السلامة، وأمرتها أن

تنسى الموضوع كلية، وأن تنظر إلى المستقبل؛ لأن التعلق بالماضى ومشاكله سوف يضع قيودًا وأثقالاً فى أقدامنا فنعجز عن الحركة الإيجابية الخلاقة . .

وكان علينا أن نصل إلى قرار بخصوص ما عرضه الحاج على، وبدأ القلق على وجه بدرية، لم تكن مرتاحة لما تسمع برغم الإغراء الشديد، قلت لها فى غضب:

- «هذه فرصة العمر».

- «قد يكون فى الأمر خدعة يا عبد القادر، هذا لا يحدث حتى فى الأحلام».

قلت بحزم:

- «هل لديك أسباب وجيهة للاعتراض؟».

قالت فى شىء من الشرود:

- «إحساس داخلى، وقلبى لايكذبنى».

- «القرارات الحاسمة يا حبيبتى لا تستند إلى الإحساس المبهم، لا بد أن يكون لديك أدلة منطقية مقنعة . . إننا لطول ما عشنا وعانينا فى الفقر نرهب السير فى طريق الثراء . . والغنى ليس حرامًا يا بدرية . . إنه حقنا، وندفع من أجله علمنا وعرقنا وكفاحنا المخلص . . الأمر طبيعى جدًا . . »

قالت وهى تلوى شفتها السفلى فى حيرة :

- «وكيف أصدق؟ لشد ما أخاف أن يرفعونا إلى القمة ثم يلقوا بنا بعدها فى الحضيض، ويضيع كل شىء . . هذا زمن الخداع والكذب . . » .

قلت وقد كاد صبرى أن ينفذ :

- «سوف أُأمِّنُ نفسى ضد أى انحراف» .

- «لن تستطيع . . والأفضل أن تترك هذه الشركة كلية، وتبحث عن عمل آخر . . » .

فكرت مليًا، وانطلقت ضاحكًا وهى تنظر إلىّ فى دهشة، كنت أضحك وفى الحقيقة قلبى يبكى، تصورت رد الفعل عندما أعلن تركى للشركة، ماذا ستفعل صافى؟؟ وماذا سيقول الحاج على محمود؟؟ أشعر أن هناك قيودًا قوية تربطنى بالعمل وأصحابه بحيث أصبحت غير قادر تمامًا على الإفلات من تلك القبضة الفولاذية، لقد خرجت من المعتقل إلى معتقل آخر من نوع جديد، لكأن الله حكم علينا أن نظل سجناء فى أى مكان نذهب إليه، وفى أية بقعة نعمل فيها، المدينة كلها سجن كبير، والضبط والربط يحكمان كل شىء، وأنا أحد المسخَّرين فى مزرعة الشقاء الثورى المهين . .

ذهبت إلى مكتبى ذات صباح، وجدت الموظفين متجمهرين فى الساحة، وما إن داخلت حتى استُقْبِلْتُ بعاصفة من الهتاف والتصفيق، تلفت حولى باحثًا عن الزعيم الذى يهللون لمقدمه، لكنى لم أجد أحدًا، وانقضوا علىّ تقبيلاً واحتضانًا ومصافحة، و أغلب هذه الوجوه لا أعرفها، ماذا جرى؟؟ كانت الكلمات تتزاحم حولى أذنى، وفهمت أن قرارًا صدر بتعيينى فعلاً مديرًا عامًا للشركة، وأن المدير السابق أصبح مجرد مستشار للحاج على. . وهذا يفهم على أنه «تجميد» مرحلى للرجل الطبيب الذى خدم الشركة سنوات طويلة، ولعله تمهيد لإحالته إلى التقاعد، كنت أسير فى زفة كزفة «المولد الحسينى»، لم أكن قادرًا على استيعاب الموقف تمامًا، ولم تقع عينى على الحاج على فى هذا الوقت العصيب، اندفعت هاربًا إلى مكتبى، لكن أحد الموظفين أمسك بيدى فى رفق، وأخبرنى أن مكتبى مغلق، وعلىّ أن أذهب إلى المكتب الجديد. . مكتب المدير العام، حاولت أن أتلكأ أو أرفض، لكن الكتلة البشرية التى تحاصرنى دفعتنى دفعًا إلى مكتب الرئاسة. . الهواء مكيف، والطاولة ضخمة وفخمة، صورة الرئيس تتجلى فوق المقعد، والتليفونات متناثرة هنا وهناك، والطنافس الموضاة تقبع فى عظمة ووقار، أمسك رجل بالمقعد الفخم وأشار إلىّ «تفضل يا بك»، ألقيت بجسدى المنهك على المقعد الوثير، همس الرجل فى أذنى- ولعله سكرتيرى الخاص-

وقال: «قل لهم كلمة شكر يا بك حتى ينصرفوا» نظرت إلى عشرات الوجوه المترقبة، وإلى الابتسامات المرسومة بمهارة، والعيون المتطلعة، ووجدتنى انتفض واقفًا، ثم أقول:

- «أشكركم أيها الإخوة على هذه الحفاوة البالغة، ولن أنسى عظيم تأييدكم لى، كما أشكر الحاج علي على هذه الثقة الغالية التى سأعتز بها ما حييت.. وأتمنى من الله أن نبدأ عهدًا من المحبة والتعاون والتفانى فى العمل، وأن نمضى فى أداء رسالتنا كأسرة واحدة متضامنة متفاهمة، وبذلك نحقق الهدف المنشود، ونساهم مساهمة فعالة فى معركة البناء والتعمير، فنؤدى بذلك واجبنا نحو الله.. والوطن.. وبالله التوفيق.. والسلام».

وجلست أجفف عرقى، وهتافات كثيرة ترن فى أذنى، «عاش المدير النزيه» «عاش الرجل المخلص» «عاش المهندس المعجزة..» «عبد القادر.. عبد القادر» «نحن رجالك عبد القادر..».

وساد الصمت فجأة، ونظرت فإذا بالحاج على محمود يشق الصفوف، فاتحًا ذراعيه فى سعادة، وهو يردد:

- «ألف مبروك يا باشمهندس..».

واحتضنى وقبلنى فى حرارة، ثم أشار إلى الموظفين كى يعودوا إلى أعمالهم، وفى لحظات كنت معه، ولا أحد غيرنا.. هل أعتب

عليه؟؟ لكنى كنت أتشوق لهذا المنصب برغم حيرتى وتْرددى- إنه إغراء لا يقاوم- لماذا أكذب عليه وعلى نفسى؟ لعل الرجل أدرك ما يعتمل فى صمتى الممتد. . فقد قال:

- «أردت أن أضعك أمام الأمر الواقع».

- «كان يجب أن تنتظر . . ».

- «هى التى أمرت . . ».

ثم افتعل سعلات خفيفة، وقال:

- «ومن منا يستطيع أن يرد للسيدة «صافى» أمرًا؟؟».

قلت فى شىء من الكبرياء:

- «أنا أستطيع . . ».

سدد إلىّ نظرات ذات معنى، ثم أردف:

- «لك الحق، لكنى واثق أنك لن تجرح مشاعرها، فهى تحبك، وأنت كذلك . . ».

وأخذ ينظر إلى وجهى ليقرأ على صفحته ما يعتمل فى داخلى، والأمر جد لا هزل فيه، ولا يصح أن تصدر منى كلمة أعاتب عليها فيما بعد، والحرص واجب، ولماذا لا أتدرب منذ الآن على فن التمثيل؟؟ ألا يجوز أن يأتى يوم وترشحنى «صافى» لدور البطولة

على الشاشة، كما رشحتنى بالأمس لألعب دورًا على مسرح شركة الحاج على؟؟ وأغمضت عينى، وقلت بلهجة تشبه لهجة الصدق:

- «لكن هذا كثير . . إنه شرف لا أستحقه . . ».

- «لا تقل مثل هذا الكلام، أنت أفضل منى ومنها . . فأنت من أهل الثقة . . ومن أهل الكفاءة أيضًا، ومن العسير أن يجتمع الاثنان فى واحد . . ».

لقد حدث انقلاب خطير فى حياتى، إنه أخطر من انقلاب الثالث والعشرين من يوليو، ففى الأسبوع الأول نقلت إلى شقة فاخرة بحى الزمالك إيجار قديم بسيط، لكنها غاية فى الروعة والجمال، وتم تأثيثها على حساب الشركة بصورة مناسبة، وأصبح لى سيارة خاصة بسائقها، لكن بدرية كانت تبكى بمرارة ونحن نغادر بيتنا القديم . . كانت تقبل الأرض والجدران والمقاعد والنوافذ، لكنى نهرتها فى غضب، ثم أفهمتها أن شقتنا القديمة سوف تبقى لحسابنا، وسوف نقضى بها بعض الليالى الهادئة من آن لآخر، وشرحت لها كيف أن طبيعة عملى تقتضى أن أستقبل بعض الضيوف المهمين، ولا بد أن يكون المكان مناسبًا ولائقًا لمثل هذه الشخصيات، لكنها كانت غير مقتنعة بما أقول، فمن رأيها أن العمل فى المكتب والشركة، وكذلك استقبال العملاء، أما المسكن فللراحة والأسرة، كما قالت أنها سوف تجد مشقة كبيرة فى رعاية هذه الشقة الكبيرة وتنظيمها وتنظيفها، لكنى وعدتها بالبحث عن خادمة . .

لقد لاحظت أن صحة بدرية تتدهور تدريجيًا، إنها أصبحت نحيلة شاحبة، وأصبح إقبالها على الطعام قليلاً، ولم تعد تملأ البيت بالمرح والضحك كعادتها، بل كنت ألاحظ أنها- وهى نائمة إلى جوارى- تصرخ أو تنهض فزعة، وتتشبث بى فى خوف، فأطمئنها وأربت على ظهرها فى حنان وحب، ثم تعتذر لى عما تسببه لى من إزعاج لا إرادة لها فيه، وتشرح لى كيف أن الكوابيس والأحلام المخيفة تداهمها بكثرة منذ أن انتقلت إلى الشقة الجديدة، وكنت أنظر إلى وجهها الحزين، فيستبد بى الأسى المروع، وينتابنى الضيق القاتل، حاولت أن أقنعها بأن ما فعلته كان من أجلها ومن أجل أبنائها بالدرجة الأولى، لكنها كانت زاهدة فى المال، وفى المنصب وفى كل الأشياء الجديدة التى أشتريها لها.. وفاض الكيل، وصرخت فيها:

- «إنك تحيلين حياتنا إلى شقاء.. أترفض نعمة ساقها الله إلينا؟؟ يجب أن تغيرى من أسلوبك هذا، وأن تستقبلى النعمة بالحمد..».

لكنها لم تجب بغير الدموع، كدت أجن، هتفت وأنا أكز على أسنانى فى غضب:

- «هل ارتكبت جريمة؟؟ تكلمى يا بدرية.. لا تتركينى هكذا، إننى لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك..».

همست فى استسلام:

- «أنا زوجتك.. وعلى حق الطاعة..».

-«نحن شركاء.. وحياتنا واحدة..».

عجزت تمامًا عن تبديد الكآبة التى تظلل المسكن الجديد، كانت بدرية تعتصم بالصمت والدموع، أو تلجأ إلى المصحف لتقرأ بعض السور، وكانت عازفة تمامًا عن مشاهدة التليفزيون أو سماع الإذاعة، ورفضت أكثر من مرة مرافقتى للمسرح أو السينما أو الذهاب إلى حديقة الحيوان أو المتنزهات، لقد أصبحت متأكدًا أن بدرية تعانى من اضطراب نفسى شديد، وتوشك على الانهيار، ولم يعد أمامى خيار، فلا بد أن أذهب بها إلى طبيب مختص فى الأمراض النفسية، قبل أن يستفحل الأمر، ويستعصى على العلاج.. عندما عرضت عليها الفكرة رفضت بشدة، وقالت فى غضب:

- «أنا لست مجنونة..».

وأخذت أشرح لها كيف أن المرض النفسى مثل المرض العضوى، ولا عيب فى أن تذهب إلى طبيب مختص كى يساعدها فى التخلص من الاضطرابات التى تداهمها بالتفاهم والتحليل والإقناع وبعض الأدوية، لكنها أصرت على موقفها، ولم تتزحزح عنه قيد أنملة، أية حياة هذه؟؟ لقد جاء النجاح، وأتت فى ذيله الأحزان، قالت لى شاردة:

-«ليت الماضى يعود . . » .

- «أي ماضٍ تقصدين؟؟» .

الرغيف الأسود الذى كنا نشتريه بنصف قرش، أو طبق الفول وأقراص الطعمية والجبن القريش الخالى من الدسم؟؟ أو الركوب فى الدرجة الثانية بالحافلات والترام والقطار؟؟ أوالشريد المقبل وقطع اللحم الصغيرة والجرجير والفجل؟؟ وهل من الضرورى أن نتشبث بأذيال الفقر والحاجة حتى تظل قلوبنا تخفق بالسعادة؟؟ إن موقف بدرية غريب وغير مقنع، ولست أدرى ماذا أفعل لها . .

همست فى شرود :

- «أيام القرب التى كانت . . » .

- «أتشكين فى حبى؟» .

- «أنا خائفة . . وأشعر أنك تبتعد . . والمال فتنة . » .

- «حبنا أقوى من أى إغراء . . » .

- «وماذا أفعل إذا لم أجدك يومًا ما إلى جوارى؟؟» .

- «من الخطأ الكبير أن تفكرى فى كهذا . . » .

قالت وهى لم تزل شاردة :

- «إذا حدث- لا قدر الله- فلن يكون لأى شىء معنى وعندئذ سيكون الموت نعمة كبرى . . » .

قلت وأنا أضمها فى حب إلى صدرى :

- «استعيذى بالله من الشيطان . . واستغفرى لربك . . » .

- «هو وحده يعلم ما بى . . » .

ذهبت إلى أحد الأطباء النفسيين ، وشرحت له الحال تفصيليًا ، وأجبت على بعض الأسئلة التى طرحها ، وأبدى وجهة نظر معقولة ، حيث أقنعنى أن فترات الانتقال الحاسمة فى حياة أى إنسان قد تصاحبها بعض الاضطرابات ، كما أشار إلى أن فترات الاعتقال وما يواكبها من قلق وتوتر تترك ترسباتها فى النفوس ، ثم نصحنى بأن أطلب عطلة لمدة أسبوعين ، وأسافر معها إلى مكان يصلح للترفيه ، وأكد على أهمية إعطائها بعض المهدئات وفاتحات الشهية والفيتامينات ، وعندما عدت إلى البيت توسلت إليها أن تستعمل الدواء ، كما حملت إليها بشرى العطلة الجميلة التى سنقضيها معًا فى إحدى المدن الساحلية اعتبارًا من يوم الخميس القادم ، أى بعد ثلاثة أيام . . لكنها لم تكن متحمسة لما أطلبه ، ومع ذلك فقد وعدت بأخذ الدواء إكرامًا لى ، لكن موافقتها بدت فاترة :

عند دخولى مكتبى فى اليوم التالى ، وجدت الحاج على جالسًا فى انتظارى ، استقبلنى كعادته باشًا شعيدًا ، ثم أخبرنى أن السيدة صافى قد أرسلت برقية عاجلة تطلب فيها سفرى إلى باريس على الفور ، للتفاهم حول شراء بعض الأدوات والمعدات اللازمة

للمبانى، ثم قدم إلى تذكرة السفر، وكمية من الدولارات الأمريكية، وقال:

- «سوف يكون سفرك بعد غد..».

- «مستحيل..».

قال الحاج فى دهشة:

- «لماذا؟؟».

- «ظروف خاصة..».

- «مهما كان الأمر، فإن مواعيد العمل مقدسة..».

وضحك وغمز بإحدى عينيه واستطرد:

- «ومواعيد الفنانة صافى مقدسة أيضًا..».

تحاصرنى الهواجس، ويضطرم فى داخلى بركان هادر، والحنق البالغ يعصف بى دون رحمة، ووجه بدرية الشاحب يبدو فى ظلامى كبدر حزين تتزاحم عليه السحب الغادرة، تنميت فى هذه اللحظات المتوترة أن أنهال على وجه الحاج على بالصفع.. لكنى أقول لنفسى: «تمهل يا عبد القادر.. كن عاقلاً، وإلا ضاع كل شىء.. لقد رضيت بما أرادوا.. فادفع الثمن أيها الضعيف..» ترى هل بدرية على حق؟ وهل أحاسيسها أصدق من المنطق والواقع؟؟ قلت وأنا ألهث:

- «سوف أسافر يا حاج..».

١٤

قالت بدرية :

- «ما دمت ستسافر ، فخذنى إلى بيتنا القديم حتى تعود» .

لم أستطع إقناعها بالبقاء فى مسكننا الجديد ، على الرغم من ميزات التليفون ووسائل الراحة ، وأفهمتنى أن مجرد عودتها إلى تلك الشقة الصغيرة سوف تساعد كثيرًا فى تحسين حالتها النفسية ، ورأيت أن الأمر لا يحتاج إلى جدال طويل ، فوافقت . .

تمتمت بدرية قائلة :

- «لم تعد ممنوعًا من السفر ، لقد فتحوا لك الأبواب على مصارعها ، من كان يصدق؟؟؟» .

لم يغب عنى إشارتها الذكية إلى ذلك الأمل الذى طالما حلمنا به من قبل أيام الحصار القاسية ، لكأنها تقول لى لماذا لا تهرب بجلدك الآن ، وقد أتيحت لك الفرصة؟ هل نسيت ما تكبدته من مشاق وأنت تبحث عن وسيلة لتخرج بها من مصر؟؟

وكان علينا أن ننتهى من إعداد بعض المناقصات المهمة، التى تختص ببعض المنشآت الحكومية، ولم أضيع دقيقة فى وضع اللمسات الأخيرة لهذه المشاريع مستعينًا ببعض ذوى الخبرة من العاملين فى الشركة، وجاء الحاج على ليطمئن بنفسه على تجهيز تلك المناقصات، فأعطيته فكرة عامة عنها، لكنه تململ قائلاً:

- «ارفع السعر ثلاثين فى المائة».

قلت فى دهشة:

- «مستحيل.. إذا فعلنا ذلك فسوف يرسو العطاء على غيرنا من المقاولين..».

ابتسم الحاج فى توتر، وأخذ يشرح لى ما خفى من أمور لا عهد لى بها، لقد فهمت أن المناقصة مضمونة بالنسبة لنا، وأن اللجنة الرسمية المختصة بذلك هى التى ترفض أو تقبل دون إبداء أسباب، وأن السيدة «صافى» قد أعدت كل شىء قبل سفرها، ثم إن إضافة هذه النسبة تعنى أننا سوف نقوم بإضافات وتحسينات فى التنفيذ تقابل هذه الزيادة، وأن المسئولين فى اللجنة هم الذين طلبوا ذلك، وأنه من المحتمل أثناء التنفيذ أن نطلب زيادات أخرى نظرًا لموجة الغلاء التى اجتاحت مواد البناء..

لم أكن من الغباء بحيث تخفى على تلك الألاعيب الشيطانية، إن الصفقة الرابحة لن تكون لنا وحدنا، وما أعضاء اللجنة إلا

شركاء أخفياء لهم حصصهم فى صافى الربح ، وكان الحاج يضيق بسذاجتى ، لكنه اعتصم بالصبر ، حتى جعلنى أنفذ ما يريد ، وكان معنى ذلك أن أعيد المناقصات من جديد على أسس مناسبة ، لكن الشيء الذى أزعجنى هو أن التنفيذ لن يكون مطابقًا للتصميمات ، ومن ثم قلت للحاج :

- «هذه مسئولية خطيرة ، قد تأخذ بيدى إلى السجن مرة أخرى . . » .

قهقه الحاج ، وقال :

- «أنت مدير عام . . أما المشرفون والمنفذون فهم مهندسون آخرون . . والذين سيتسلمون المشاريع بعد الانتهاء منها مختصون موالون لنا . . افهمها يا باشمهندس . . » .

إننى أشارك فى خدعة رخيصة ، وأرتكب غشًا صريحًا أعرفه منذ البداية ، فلو فرضنا أنه تغيرت اللجنة ، أو دب خلاف عند اقتسام الغنيمة ، فسوف تحل بنا الكارثة لا محالة ، قد أنجو ، وقد تفلت صافى والحاج على ، لكن المشرفين والمنفذين سوف يدفعون الثمن غاليًا .

قلت للحاج على :

- «يجب أن نؤجل ذلك حتى تعود صافى» .

قال فى غضب :

- «لكن باب المناقصة سيقفل غداً فى الثانية عشرة ظهراً، ولا مجال للتأخير . . لست أدرى لماذا تخاف من المسئولية بعد أن اتضح لك أن رفع السعر يقابله إضافات، وأنك لا علاقة لك بالتنفيذ أو الإشراف؟؟ . .».

همست فى قلق :

- «لكننا سنورط أبرياء . .».

رد غاضبًا :

- «من قال ذلك؟ ستقابل أعضاء اللجنة الليلة بنفسك . .».

هأنذا أواجه الفتنة جهاراً ونهاراً ومع سبق الإصرار، تلك هى الجريمة الكاملة مهما يقول الحاج على، والتستر على مثل هذا الأمر خيانة فى حق الوطن، وانسياق إلى الحضيض، إنه امتحان رهيب! صحيح أن الحكومة قد أذاقتنى الأمرين، وكوت جسدى بسياطها التى لا ترحم، وألقت بى في غياهب السجون، وحاربتنى فى رزقى وأمنى، وأذلت كبريائى، لكن الانتقام لا يجب أن يكون على هذا النحو من الاستغلال، وإهدار مالية الدولة، حتى ولو كان اللصوص هم سدنة الحكومة ورجالها الأقوياء والأوفياء، ما دام بيدى القرار فأنا المسئول، فكيف أخون الأمانة؟؟» وأين المبادئ التى تغنيت بها طويلاً، واصطليت بنيرانها المقدسة؟؟».

التقيت بأعضاء اللجنة فى المساء، ودارت الكؤوس، وفاح الأفق برائحة التبغ، وتكلموا كثيرًا فى أشياء غير العمل الذى جئت من أجله، والحاج على خلع رداء الوقار، وأخذ يشرب ويرقص ويغنى، كنت ضائعًا فى وسط الزفة، أفكر فى أمور مضحكة، أخذت أحسب ثمن زجاجات الخمر المتراصة على المائدة، أحسب ثمن الحمام والدجاج الرومى والأصناف العديدة من الطعام، لقد هالنى الرقم الكبير، ويتحدثون عن التقشف وترشيد الإنفاق والتضحية من أجل الوطن، وحقوق الفقراء والكادحين، حاولت أن أفتح موضوع المناقصات، فلم أجد اهتمامًا يذكر، أحالونى إلى الحاج على الذى يعرف كل شىء، أصبت بخيبة أمل كبرى، هيهات أن يستطيع هؤلاء السكارى إصلاح أى شىء، وبالحفل نخبة من النساء، لا أدرى أهم زوجات أم عشيقات، لقد اختلطت الأمور، وتلامست الأيدى، وتبدلت النكهات الجارحة، والجميع يحفظون أغنية «صافى» عن ظهر قلب :

اشرب شراب .

وكلا كباب . . إلخ .

والموسيقى تصدح وتصدع رأسى، وتختلط الأنغام بالصياح والتأوهات، والضحكات والحوار، وأشعر أنى أكاد أختنق وأتسلل فى غفلة دون أن يدرى بى أحد، وأمضى إلى الشارع الساكن

البارد، وأستنشق الهواد النقى، وقد تخطت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وأركب سيارتى الجديدة، وأنطلق إلى بيتى القديم.

وفى اليوم التالى ودعت بدرية، وقبلت هدى وأحمد، ثم خرجت على أمل اللقاء القريب، لاحظت أن بدرية تبكى بمرارة شديدة يا إلهى!! إنها منفعلة ومتألمة أكثر مما حدث يوم اعتقلونى، لكنها معذورة بسبب ما تعانيه فى هذه الأيام من اضطرابات نفسية، وليس على المريض حرج..

دخلت المطار لأول مرة، كنت مشدوهًا، أنظر يمينًا ويسارًا، وأتملى فى السقف العالى، وأفواج الخلق من كل لون وجنس، وصوت مكبرات الصوت يجلجل بشتى اللغات، وابتسامات ودموع وقبلات وتلويح بالأيدى.. قال لى الحاج «على» الذى أبى إلا أن يرافقنى حتى المطار:

- «طمئن السيدة صافى.. وقل لها إن كل شىء على ما يرام».

لم أكن قادرًا على أن أتكلم فى العمل، فاكتفيت بهز رأسى، لكنى تذكرت أن معى كمية كبيرة من العملة الصعبة، فساورنى قلق بالغ، ملت نحو الحاج قائلاً:

- «أشعر أن هذه الدولارات كارثة..».

صاح فى حدة:

- «لماذا يستبد بك الجبن هكذا؟؟؟».

- تعلم أن ذلك مخالف للقانون، وأنا مصاب بالحساسية الشديدة تجاه كل ما هو غير قانونى..».

- «أنت رجل محترم.. وكبار المسئولين يحرسونك..».

- «لم أعد أثق فى أحد..».

نظر إلىّ بغضب وهدر:

- «إننا نحاول أن تصنع منك رجلاً ذا قيمة، لكنك تأبى إلا أن تتشبث بالأرض.. انطلق..».

عندما تهاجمنى الوساوس، وأدرك أننى قاب قوسين أو أدنى من الخطر، أنزع عن نفسى لباس التردد، وأقذف بكلمتى فى وجه الإغراء والتحدى، ولذا وضعت يدى فى جيبى، وأخرجت الدولارات، ثم دسستها فى يد الحاج على قائلاً فى إصرار:

- «خذ..».

رمقنى باحتقار، ووجد الإصرار فى عينى، أطرق فى غضب وتنهد، ثم وضعها فى جيبه، وصافحنى بيد مرتجفة، وقال:

- «مع السلامة..».

انتهت عملية الوزن بسلام، ومررت بضابط الجوازات دون

مشاكل، واستقر بى المقام فى قاعة الانتظار حتى يحين موعد دخول الطائرة . . أعرف أن السفر يقلق بدرية لكنه تجربة مثيرة ومفيدة، لا بد أن أرى العالم . . وأتعلم . . سأعود بعد أيام . . وسأحمل لك با بدرية ملابس فاخرة من باريس، وسأختار مجموعة من الألعاب الفريدة لهدى، وسأجعل من هذا السفر أيضًا بعثة دراسية قصيرة أحصل فيها الجديد الذى يتعلق باختصاصى . . وسوف . . وتوقفت أفكارى فجأة حينما سمعت صوتًا يجلجل باسمى فى مكبر الصوت . . لم أصدق أذنى فى البداية . . لكن اسمى ما زال يتردد . . يا إلهى . . ماذا جرى؟؟ وقصدت مكتب الاستعلامات، وما أن عرفتهم بنفسى، حتى اقترب منى رجل فى حوالى الأربعين، وقال باقتضاب :

- «اتبعنى . . » .

حاولت أن استفسر، لكنه ظل معتصمًا بالصمت، وكأنه أصم لا يسمع، دلفت خلفه إلى باب جانبى، وصعدت الدرج، وبلغنا ممشى طويل فى الدور الثانى، ثم مال ناحية باب من الأبواب، ونقر نقرات ثم دخل، أغلق الباب، وتركنى أقتات حيرتى وقلقى، لكنها لحظات عاد بعدها، وأشار علىّ بالدخول، حينما دخلت رأيت شابًا هادئًا وسيمًا يضع سماعة التليفون على إحدى أذنيه، كان يجيب باقتضاب . . كلمة أو كلمتين . . لم أستطع أن أفهم من

حديثه التليفونى شيئًا . . وما أن انتهى من مهمته . . حتى تراجع قليلاً إلى الوراء، ثم نظر إلىّ بإمعان وقال :

- «شرفت يا باشمهندس . . » .

- «شكرًا يا أفندم . . » .

- «هل تظن أننا نيام؟؟» .

لم أفهم ما يرمى إليه، لكن الخوف تلبسنى . . هذا أسلوب رجال أعرفهم . . نظراتهم وأسلوبهم وسخريتهم لا تتغير . .

- «العفو يا أفندم . . » .

مال برأسه يمينًا، ثم يسارًا، وقال :

- «أتسافر هكذا فجأة دون أن تمر على سيادة المفتش؟؟ أنا لا أصدق . . » .

تماديت فى تجاهلى :

- «أى مفتش؟؟» .

هب واقفًا، وقال بحدة :

- «المباحث العامة يا أستاذ . . نحن هنا، وفى كل مكان . . أعرف أنك ستقول أن بالجواز تأشيرة خروج . . ليكن . . لا سفر إلا بعد مقابلة المفتش مفهوم؟؟» .

- «لم أكن أعرف».

رمانى بنظرة شك قاتلة:

- «ألاعيبكم لا تخفى علينا».

- «ربما أكون قد أسأت الفهم..».

قال حانقًا:

- «.. والتصرف والأدب».

لقد بدأ طوفان الإهانة، وما علىّ إلا أن أصمت، فلست أملك إلا الصمت، راودنى خاطر جنونى أن أحتج على بذاءته، وأرد له الصاع صاعين، وليحدث ما يحدث.. إننى أشعر فى هذه الأيام بالذات برغبة حارقة فى العودة إلى المعتقل، قد يخلصنى المعتقل مما أكابده من عذاب، هناك أعود إلى ذاتى.. وعجزى.. وخلوتى إلى الله، وسأنجو من جحيم الشركة والمناقصات، والنفاق، وسأفلت من قبضة الحاج على وصافى وأعضاء اللجنة:

قلت فى شىء من البرود الغريب:

- «يجب أن تعاملنى كإنسان له احترامه..».

أشار إلىّ بإصبعه فى استهزاء، وقال:

- «أنت؟؟».

- «نعم . . أنا . . » .

وثب من خلف مكتبه، واقترب منى قائلاً :

- «أيها الأوغاد . . سرعان ما تنسون الدرس» .

وقفت متوترًا وهتفت :

- «ماذا تريد منى؟؟» .

لم يكترث لسؤالى، وأشار إلى مرافقى قائلاً :

- «خذه إلى هناك . . » .

جرنى من يدى إلى غرفة جانبية، وأغلق بابها دونى، جلست وحدى أحاول تجميع شتات فكرى، واستكناه ما يجرى حولى، وطال انتظارى، وحانت منى التفاتة إلى ساعة الحائط المواجهة لى، واكتشفت لأول مرة أن طائرتى سوف تقلع بعد نصف ساعة . . وقفت . . خطوات نحو الباب المغلق . . أخذت أدق الباب . . وبعد لحظات فتح الباب . . وقال ضابط الأمن ذو اللسان السليط :

- «ماذا تريد؟؟» .

- «لماذا أنا هنا؟؟ إن الطائرة ستغادر بعد قليل . . » .

هز رأسه فى ازدراء، وقال :

- «تستطيع الذهاب الآن . . هيا . . » .

- «وجواز السفر . . » .

- «ستجده عند سيادة المفتش غداً . . وأنت تعرف المكان . . أليس كذلك؟؟» .

لم يكن الموضوع فى حاجة إلى شرح أو نقاش ، وصحبنى الرجل الصامت هذه المرة خارج المطار ، سمعت صوت المضيفة يجلجل «النداء الأخير . . الرحلة رقم (. . .) المغادرة إلى باريس . . على جميع الركاب التوجه إلى البوابة رقم ٣ لركوب الطائرة . . » .

وأمام المطار وقفت وحيداً حائراً حزيناً . .

- «تاكسى يا بك؟؟ حمداً لله على السلامة» .

مشيت دون هدف . .

وسائق التاكسى يطاردنى . .

وأخيراً استجبت لرجائه ، ودلفت إلى التاكسى . . قال السائق ، وهو يأخذ مكانه المعتاد بالسيارة :

- «أليست معك حقائب؟؟» .

- «سافرت الحقائب . . وبقيت أنا . . » .

التفت إلىّ فى دهشة ، ثم عاد ينظر أمامه ، ويقول :

- «خير . . لماذا؟؟» .

قلت وأنا أنتهد :

- «أمر الله . . » .

وعاد السائق يقول :

- «إنهم لا يمنعون غير السوابق والمظلومين . . وأنت رجل محترم . . » .

قلت في اعتداد وثقة :

- «لا . . أنا سوابق . . » .

نظر إلىّ فى دهشة ثم قال :

- «إلى أين يا بك؟؟» .

- «الترعة البولاقية . . » .

اختلطت الدهشة بالفرحة فى عينى بدرية ، استقبلتنى بحرارة وكأنى عائد للمرة الثالثة من المعتقل ، تألق الفرح فى عينيها كالزمن الغابر ، تشبثت بى فى قوة ، كان الحزن باديًا على وجهى ، وأكاد أبكى من الغيظ ، قالت فى يقين :

- «لشد ما أنا سعيدة» .

- «دعك من السفر . . لكننى أفكر فى الحصار الذي ضربوه من حولنا . . أما لهذا السجن من نهاية؟؟» .

- «كل شىء بميعاد يا عبد القادر» .

لم يصدق الحاج على عينيه فى الشركة حينما رآنى واقفًا أمامه، كان فى نظراته ألف سؤال، وشرحت له الأمر فى يأس وقرف، هب واقفًا وخرج إلى حيث لا أدرى، أما أنا فلقد بدأت فى ممارسة أعمالى المعتادة، كانت بى رغبة جامحة فى عدم الذهاب إلى المباحث العامة، وفضلت أن أتجاهل الأمر كلية، أصبحت أؤمن بأن كل ما يجرى من حولى سراب وأكاذيب وتمثيل، ولم أعد أميل لتصديق شىء. . الناس والصحف والإذاعة والمؤتمرات والشعارات، كلها جهزت فى مصنع الأكاذيب الكبير. . أصبح الكذب علامة تجارية (ماركة مسجلة). . تحدثت صافى من باريس مستفسرة عما جرى، شرحت لها الأمر بتحفظ ودون حماسة، كانت غاضبة ثائرة. . خيّل إلىّ إننى أرى وجهها المحتقن، ونظراتها الحانقة. .

ثم كانت المحاولة الثانية للسفر بعد يومين. . لقد أتى أحد رجالات الأمن، واصطحبنى بنفسه هذه المرة إلى المطار. . ولم يتركنى إلا بعد أن أدخلنى الطائرة. . كنت أراه عبر نافذة الطائرة واقفًا. . حتى تحركنا. . وأصبحنا فى الجو. .

●●●

١٥

كانت تجربة فريدة، الطائرة تشق بى الآفاق، وأشعر أن الجاذبية التى تشدنى إلى الأرض تخف رويدًا رويدًا . . إن قيود الخوف والقهر تتلاشى، وتعود إلىّ الثقة الكبرى فى نفسى، لقد أصبحت حرًا، ويمكننى أن أقول ما أشاء، وأن أمارس أى عمل أراه، ورأيت كل شىء فى باريس مطلق السراح، لا يقيدهم إلا النظام الضرورى الذى يجعل عجلة الحياة تسير، الشرطى -وهذا أهم شىء- يبتسم. . ولا يعامل أحدًا بفظاظة، ولا يستخدم رجليه ويده إلا لمساعدة أحد، والأطفال ينطلقون فى ذكاء ومرح، أما النسوة -وقد آلمنى ذلك- قد خلعن عن أنفسهن الكثير من التقاليد المرعية والملابس، والفتيات يمسكن بأيدى الشباب، إن هناك خيطًا رفيعًا بين الحرية والتحلل. .

حين التقيت بـ«صافى»، وجدتها تعانقنى وتقبلنى على ملأ من الناس، أحسست بجرح بالغ، واحمر وجهى خجلاً، وتلتف حولى فى حيرة، ووجدتنى أقول لها:

- «نحن فى الشارع . . » .

- «أنت زوجى . . لشد ما تشوقت إليك ! ! » .

- «هذه أمور تخدش الحياء . . أحرى بنا أن نؤجلها حتى نعود إلى الفندق . . » .

ضحكت من قلبها ، وذكرتنى بأننا فى باريس ، وأن مثل هذه التصرفات طبيعية ، ولا تثير التفات أحد هنا ، ومعظم الناس فى أوربا يفعلون ذلك ، لكنى أفهمتها أننى فى القاهرة لا أختلف عن باريس ، وأنى عبد القادر هنا أو هناك ، وأن القيم التى أؤمن بها فوق الزمان والمكان ، ولن يتزعزع إيمانى بهذه الحقائق . . وطافت بى هنا وهناك ، شاهدت برج «إيفيل» والمسلة المصرية فى الميدان ، وأشرت إلى المسلة قائلاً :

- «إنها غريبة . . فى أرض بعيدة . . ولكنها تشمخ فى كبرياء . . وملامحها «الهيروغليفية» المسجلة عليها تنطق بالوقار والصمود . . » .

همست وهى تضغط على يدى فى شوق :

- «ليتك تغزلت فى نصف ما تعزّلته فى المسلة . . » .

ووجدتنى أضحك .

قالت : «لماذا تضحك ؟ ؟ » .

قلت: «تذكرت بيتًا من الشعر لأمير الشعراء شوقى:

- «فى الغزل؟؟».

- «لا.. إنه يقارن بين مجد الفراعنة القديم، وخيبتنا المعاصرة..».

قالت فى ضيق:

- «ماذا قال؟؟».

- «إن الذين بنى المسلة جدهم

لا يحسنون لإبرة تشكيلا

لكن «صافى» احتجت على هذا المنحى من التفكير، وقالت إن لشوقى أبياتًا جميلة عن الحب والجمال والغزل، وإنها كلمات رقيقة جديرة بأن ترددها فى هذا المجال، بعد أن افترقنا لأيام طويلة كانت مليئة بالشوق والحرمان والأحلام.. ووجدت أنها على حق، فانطلقنا فى شارع باريس وحدائقها، على الرغم مما أشعر به من إرهاق السفر، وقلة النوم، والغريب أننى كنت أتذكر «بدرية» فى هذه الأوقات، لكنى كنت أحاول جاهدًا أن أصرف خيالها عن فكرى، حتى لا يفسد كل شىء بينى وبين «صافى».

وقضينا فى فندق «ميرديان» أيامًا جميلة، عبرت «صافى» عنها أصدق تعبير حينما قالت: «نحن نعيش شهر عسل جديد» وأفقنا

من نشوة اللقاء على قائمة طويلة بما ينتظرنا من أعمال، والحقيقة أننى شاهدت على الطبيعة كيف تقدمت صناعة العمران، وأدخلت عليها التطورات المذهلة، والآلات العديدة، وكذلك الإبداعات المثيرة، وأيقنت أنه من الضرورى أن يلم المهندس بهذه المنجزات الجديدة، حتى يرتفع مستواه، ويعيش عصره، وأخذت أسجل كل ما تقع عليه عينى أو أقرؤه فى مذكرات خاصة، والأمورخ فى باريس تمشى سلسلة ميسورة، فأصحاب الأعمال يجدون ما يحتاجون إليه ببساطة، واللوائح والقوانين واضحة لا تحتاج إلى تأويل أو تحريف أو تلاعب، والسبل مفتوحة تمامًا لكل من يريد أن ينطلق فى آفاق العمل والكسب والإجادة، ووجدت الفرصة مواتية لاكتساب مزيد من الخبرة حينما عرض علىّ أحد مديرى الشركات أن أعمل معهم، لكن «صافى» أبدت اعتراضًا شديدًا بحجة أن لدينا الكثير من الأعمال التى تنتظرنا فى مصر، ثم ألمحت إلىّ أن بقائى فى باريس يعنى الهرب.. وهذا أمر خطير لأنها هى التى ضمنتنى شخصيًا فى السفر، ووعدت بأنى سأعود، وإذا لم أرجع معها - حسبما قالت- فقد يعتقلونها أو يحاكمونها، بل إنها ألمحت أيضًا إلى أن أسرتى الصغيرة قد تتعرض للاضطهاد الذى لا يعلم مداه إلا الله، واقشعر بدنى عند ذكرها ذلك التهديد الخطير، فكيف أقبل على نفسى أن تتعرض «بدرية» وولدها وابنتها للإيذاء؟؟ إننى لا أطيق مجرد التفكير فى هذا الاحتمال البشع.. إننى أعود للقهر

والخوف من جديد، حسبت أننى تحررت، ولكن بعضًا منى لم يزل يعـيش على أرض الوطن، إنهم مـا زالوا يملكون القـوة والسلطة للانتقام منى بطريق غير مباشر. إنها هنا أيضًا. .

واستطعنا أن نصل إلى حل وسط حتى تتحقق لى الخبرة العملية اللازمة، فاتفقنا أن أعمل فى باريس لمدة شهر واحد، ثم أعود مرة أخرى بعد بضعة أشهر لأعمل شهرين أو ثلاثة، وبدأت العمل فعلاً، كنت أخرج فى التاسعة صباحًا ولا أعود إلا فى الثامنة مساء، وكانت صافى تخرج للعمل فى التمثيل، لكنها تعود فى وقت مبكر، وأحيانًا كانت مواعيد العمل تضطرها للخروج ليلاً لتصوير مشاهد مسائية، لكننا نلتقى على أية حال، ونقضى فترات بهيجة معًا، وذات مساء عدت فجأة إلى أحد الملاهى الليلية مبكرًا، أى قبل موعدى بثلاث ساعات، وكم كانت دهشتى حينما رأيت «صافى» تراقص رجلاً غريبًا. . جمدت فى موقفى لا أدرى ماذا أفعل، كان يطوقها بذراع، ويمسك يدها بالأخرى، والموسيقى الصاخبة تدق فى شراسة كدت أجن وأنا أراها ملتصقة به، وهو يتمايل فى نشوة، وهى تهيم كفراشة. . «أيتها الداعرة إنك تدوسين كافة العهود والمواثيق»، وتواريت جانبًا حتى لا ترانى، انتهت الجولة، ورأيتهما يجلسان معًا، وأخذ يأكلان ويتقارعان كؤوس الكونياك. . لم أعد أحتمل. . لكننا فى باريس. . وأنا أشعر أننى قادم لتوى من كوكب آخر، حتى ليخيل إلىّ أن الحاضرين فى الملهى

سوف يجعلون منى أضحوكة أو طرفة إذا اندفعت نحوها ثائراً غاضبًا . . تسللت خارجًا والغضب يشعل الحريق فى جسدى . . ووجدتنى أردد بينى وبين نفسى : لا يدخل الجنة ديوث . . ومَنْ هو الديوث؟! الذى يرى المنكر فى أهل بيتـه . . ويسكت . . إن مـا حدث كان خطأ ، لا يصح أن أخدع نفسى . . لم تكن صافى لى ، ولا أنا أصلح لها . . وعبثًا أحاول أن أخرجها من المستنقع الآسن الذى تعيش فيه . . وبقيت أتسكع فى الشوارع حتى حان الموعد السابق . . رجعت إلى الملهى . . كانت تجلس فى انتظارى وعيناها على الباب . . هشت وابتسمت لمقدمى ، صافحتها فى برود ، وعيناى تسددان إليها سهامًا من حقد . . هتفت :

- «ما بك؟؟» .

قلت فى صوت مبحوح :

- «لنعد إلى الفندق» .

- «ليكن . . كما تشاء . . لكن ماذا جرى؟؟» .

وخطوت إلى الخارج دون أن أجيب على تساؤلها ، ومشيت خلفى ، إننى أعرفها ، حادة الذكاء ، سريعة الاستنتاج ، ولهذا لم أعجب حينما سمعتها تقول :

- «لقد أنهكنى الرقص . . » .

التفت إليها فى حنق:

- «الرقص؟؟».

أمسكت بيدى، وقالت:

- «هل أتيت إلى الملهى قبل هذه المرة؟؟».

قلت فى حدة:

- «نعم.. ورأيتك فى غيبوبة فاجرة..».

- «عبد القادر..».

- «لا تنطقى باسمى مرة ثانية.. لقد انتهى كل ما بيننا.. وسأرحل فورًا إلى مصر.. إنك تحطمين كل المعانى الجميلة فى حياتى..».

قالت والدموع فى عينيها:

- «لم أقصد ذلك مطلقًا.. الرقص سلوك اجتماعى.. سمه نوعًا من المجاملة أو الرياضة..».

- «أنا لا أسميه إلا فجورًا ومجونًا..».

- «كيف؟؟».

- «يتلاصق جسد رجل وامرأة.. وتقولين رياضة..».

كانت تعلم أن لكل منا مبادءه وقيمه، وتدرك أن تنازلى أمر

شاق، وتحاول دائمًا أن تحسم الموقف بأقل الخسائر، وبأقصى سرعة، همست فى تذلل:

- «آسفة. . أعترف أننى أخطأت. . إن وجودك معى سوف يعلمنى الكثير. . أنت تأمر. . وأنا أطيع. . هذا عهد علىّ. .».

لذت بالصمت، وفى غرفتنا فى الفندق قصدت سريرى، وألقيت بجسدى عليه، لم تكن لدى أدنى رغبة فى الحديث، وأطفأت الضوء، حاولت أن تجرنى إلى مزيد من السهر والكلام، فلم تفلح، فتركتنى لنفسى، وذهبت لتنام هى الأخرى.

●●●

فى باريس أدركت أن صاحب العلم والموهبة يمكنه أن يرتقى سلم النجاح بسرعة مذهلة، ما دامت له الرغبة والقدرة على العمل، وتستطيع أن تتمسك بفلسفتك الأخلاقية فى الحياة، دون أن يعوقك ذلك عن تحقيق آمالك. . والجميع أحرار فيما يفعلون، بشرط أن يعرفوا ما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات. . كنت فى الشركة التى التحقت بها محط الاحترام والتكريم، لم يستغربوا عندما علموا أنى أصلى على طريقتى الإسلامية، ولا أشرب الخمر، وازداد احترامهم لى عندما اعتذرت بلباقة لزميلة لى فى العمل دعتنى لقضاء ليلة معها، ربما تكون قد تضايقت كثيراً، حتى إنها أذاعت ذلك -دون حرج- بين الزملاء والزميلات، فهى

كأنثى لا تريد من أحد أن يحرج كبرياءها، ويرفض وليمتها، لكنها احترمت حريتى ومبادئى، وعادت تتعامل معى بإكبار وتقدير . . لقد كانت لدى المناعة الكافية فلم تلحقنى جراثيم الوباء بأى ضرر . . إننى أشق طريقى بثقة وقوة، ويتأكد لى يومًا بعد يوم أن هذا المجتمع برغم ما فيه من انحرافات سلوكية، يستطيع أن يمنحنى الفرصة للتفوق والتقدم . . ليتنى أستطيع أن أحضر أسرتى هنا، وأعيش فى باريس طول حياتى، لكنه مجرد حلم كالأحلام الكثيرة التى لم تتحقق لى . . دائمًا أواجه بالعقبات التى تعترض آمالى . .

قضيت ثلاثة أسابيع فى باريس، وذات يوم وجدت «صافى» تستدعينى بالتليفون على عجل، فأسرعت بالذهاب إلى الفندق، كانت شاحبة مرتاعة، ووجدتها تقول فى توتر وعجلة :

- «لا بد أن نرحل اليوم . . » .

- «ماذا جرى؟؟» .

- «الحرب تدق الأبواب . . وإذا لم نسرع بالذهاب، فقد نبقى هنا فترة طويلة لا يعلم إلا الله مداها . . » .

قلت فى دهشة :

- «الحرب؟؟» .

- «نعم . . القوات المصرية تحركت إلى سيناء . . والحشود

الإسرائيلية فى مواجهتها، وقد أخطرونى من مصر بضرورة العودة بأسرع ما يمكن . . ».

كان الأمر مربكًا ومحيراً بالنسبة لى، صحيح أننا كنا نقرأ فى الصحف، ونسمع فى الإذاعات عن تهديدات وإنذارات وتوترات، لكن مثل هذه الأشياء تحدث دائمًا، أما الحرب فإنها أمر آخر . . ومن الضرورى فعلاً أن نرحل إلى أرض الوطن، فى مثل هذه الأوقات ينسى الإنسان الإساءة، ويشعر بخوف عميق على وطنه . . ويتذكر أن له أسرة وأهل، وله وطن.

قالت صافى:

- «إن لدينا ترسانة هائلة من السلاح الروسى . . أنا أعرف . . ».

- «لكن الأمر ليس بالبساطة التى تتصورينها . . إنها الحرب . . . ».

أسرعت صافى إلى التليفون، وطلبت الحجز على أول طائرة مغادرة إلى القاهرة، ثم عادت تقول:

- «فى الحرب الماضية عام ١٩٥٦ أخذنا على غرة . . أما هذه المرة فلا . . ».

قلت فى شىء من التردد:

- «العالم كله مع إسرائيل . . » .

- «لا يهمنى العالم يا عبد القادر . . كيف نحن أولاً . . » .

- «نحن نشترى القمح من أجل الرغيف . . ونشترى السلاح . . ونستدين . . ترى ماذا سيحدث أكثر من ذلك لو حاربنا . . » .

- «عندما ننتصر سوف ينصلح الحال . . » .

- «وإذا هُزمنا يا صافى؟؟» .

جمدت فى مكانها ونظرت إلىّ فى دهشة، وقالت :

- سيجب أن ننسى إساءتهم إليك . . انس ثأرك القديم . . » .

قلت فى اعتراض :

- «أتشكين فى وطنيتى؟؟» .

- «أنت لا تثق فى القيادة . . » .

- «ربما . . » .

- «هذا خطأ جسيم . . » .

- «لكنى مستعد للتضحية بروحى حتى لا تنتصر الصهيونية عدوتنا اللدود . . » .

- «ولن يتحقق النصر إلا بالالتفاف حول القيادة . . » .

كنت قلقًا، إننى من أتذكر مأساتنا فى اليمن وآلاف الضحايا وآلاف الملايين من الجنيهات التى ضاعت، وأتذكر الفساد المستشرى بين رجال القمة وأعوانهم، ومناقصات الحاج على، والطائرة الخاصة التى تحضر «الكريز» مرة كل أسبوع من باريس لرفيق المشير والسياط التى تسوق رجال المال وملاك الأراضى السابقين، تحت شعار تصفية الإقطاع، والسلاطين الجدد فى كل محافظة ومركز وفى كل وزارة أو ديوان من دواوين الحكومة . . وآلاف المعتقلين والمسجونين الذين يذوقون الأهوال دون رحمة . . ولعل صافى كانت ترمقنى بإمعان، وسمعتها تقول:

- «هناك أخطاء . . إنى أقر بذلك».

نظرت إليها نظرة خاطفة دون أن أعلق، فاستطردت:

- «والحرب سوف تطهر القلوب والأرض . .».

- «وقد تزيد من البلاء والويلات . .».

- «ليس هناك شىء بلا ثمن يا عبد القادر . .».

- «نحن جميعًا نتمنى النصر . .».

- «لا يصح أن يكون مجرد أمنية . . بل إيمانًا عميقًا قويًا . .».

كانت الصحف الأجنبية فى اليوم التالى مشغولة بأحداث الشرق الأوسط، لكن التيار العام يبدو فيه التأييد لإسرائيل، وكان

المحللون السياسون والعسكريون يكتبون كلامًا مغايرًا تمامًا لما تقرؤه ونسمعه فى مصر والدول العربية، وجلسنا نجمع الأخبار والآراء أنا وصافى، ونحاول أن نقرأ ما بين السطور، قالت صافى فى ضيق:

- «أوربا متآمرة..».

- «وأمريكا..».

- «نعم.. الإمبريالية العالمية كلها ضدنا يا عبد القادر..».

- «وهذا يجعل مهمتنا شاقة..».

- «إننى مؤمنة بأننا سنصل قلب إسرائيل فى ست ساعات، وهذا ما صرح به أحد العسكريين عندنا..».

- «دعك من التصريحات الرسمية..».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «أقول إن المهمة شاقة.. وإسرائيل تدافع عن وجودها، ولن تسلم بسهولة.. وليس وراؤها إلا البحر من الخلف، ونحن من الأمام.. معركة ضارية.. ويجب أن نتأكد من ذلك حتى لا نفاجأ بما لا نتوقعه..».

هتفت فى غضب:

- «القيادة تعرف كل شىء.. ولن تقامر بالبلد..».

قلت فى شرود:

- «ليس فى بلدنا من يجرؤ على قول الحقيقة . . وحتى إن قيلت فلن يلتفت إليها أحد من صناع القرار . .».

- «القيادة -قبل غيرها- تعرف ما هى الحقيقة، وتتحمل المسئولية . .».

وعدنا إلى القاهرة، كانت المدينة تموج بالصخب، وشعارات الإذاعة التليفزيونية تصم الآذان، وأخبار المعركة تحتل معظم مساحات الصحف والمجلات وأرتال سيارات الجيش والشرطة تجوب الشوارع، والأمل الكبير فى النصر يلهب المشاعر والنفوس، وتناسى الجمهور الهائل كل الحزازات والصراعات والثارات القديمة، وانتقلت عدوى الحماسة إلىّ، بل أصبحت أتوق ليوم المعركة الفاصلة، قلت لصافى:

- «النصر لنا بإذن الله . .».

وجدت الصدق فى نبراتى، والسعادة على وجهى، فافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة، وقالت:

- «حينما نعود إلى أرضنا ونعيش بين شعبنا، يذوب كل عناء ويأس . . إننى أشعر بسعادة بالغة . .».

وهمست فى أذنى، وكأنها تقدم لهدية ثمينة:

- «تستطيع أن تعود إلى أسرتك فورًا . . عندك عطلة يومين . . يومين فقط . . ».

كان المذياع فى مقهى المعلمة بسبوسة يضج بالأغانى والأناشيد الوطنية ، ورواد المقهى قد توقفوا عن لعب الورق والدومينو والطاولة ، وهم بين قارئ للصحيفة ، أو مستمع للإذاعة ، أو محاور لزميله عن الحرب . . وأنا أمضى فى طريقى أرقب المشهد المثير فى شوق ولهفة . . وجاءنى صوتها :

- «طال غيابك يا قاسى . . ».

- «أهلاً يا معلمة . . ».

- «أهلاً يا دفعة . . ».

عجبت حينما ذكرت كلمة «دفعة» التى لا تقال إلا مجندين ، ولم يطل تعجبى فقد أخبرتنى أننى مطلوب للتجنيد ، وكيف أطلب للتجنيد وأنا وحيد أبى وأمى وليس لى أخ ، لا شك أن خطأ ما قد حدث . . وضحكت وأخبرت المعلمة بوضعى القانونى ، لكنها أكدت لى أننى قد طلبت ، قلت لها :

- «حسنًا ، حتى ولو لم يطلبونى ، فإنى مستعد للتطوع من تلقاء نفسى . . هذا شرف كبير . . ».

زغردت ، وقالت :

- «عشت . . ».



لم أبت مع أسرتى الصغيرة سوى ليلة واحدة فقد صدر أمر باستدعاء فئات معينة من المهندسين، وأسرعت بتسليم نفسى لأقرب مركز، وفى خلال أيام ثلاثة كنا فى «سيناء». . الحر الشديد والزحام أشد. والعربات والدبابات ومختلف الآليات تتراص بأعداد هائلة، والروح المعنوية للجنود عالية، وهم يتحرقون شوقًا للمعركة، إن الأحداث الكبرى تغطى على ما عداها، كأنى ولدت أمس، ولم أعد أفكر فى أيامى السوداء القاتلة، ولم تعد تحزننى ذكريات القهر والعذاب، إننى اليوم أبنى «الدشم»، وأقيم الساتر الحجرى هنا وهناك، وأضع القواعد للمدافع والصواريخ، أشعر أن الجميع هنا جسد واحد، بنيان واحد، لا تنافر ولا أحقاد، والحياة لا بد وأن يكون فيها الصواب والخطأ، والشر والخير، لكننا نقف اليوم فى مواجهة خطر واحد، والموت فى هذه المعركة- لا شك - شهادة فى سبيل الله، إننا ندافع عن تراثنا وعقيدتنا وحريتنا كافة، ولن تكون ممارسات

الأمس الخاطئة سببًا فى النكوص أو التراجع أو الشماتة، لكنى سمعت أن عددًا من الفنانين والفنانات يزور الجبهة . . ثم قرأت ذلك فى الصحف، وسمعته فى المذياع . . إن اسم «صافى» بينهم . . لم أكن مرتاحًا لهذا الخبر، إن من لا تجذبه ريح الجنة، لن تحمسه أغنية أو لحن، والذين يدقون أبواب الموت يحتاجون إلى صوت الله . . قلت لمن معى :

- «دعكم من هذا الهراء، واقرأوا بضع آيات من كتاب الله» .

آلمنى أن القيادة تعتقد أن الاسرائيليين لن يجرأوا على خوض المعركة، وأنهم سوف يتراجعون ويستغيثون بالرأى العام العالمى، وعندئذ نستطيع أن نحقق أهدافنا من المعركة دون أن نطلق رصاصة واحدة، معنى ذلك أن حشودنا الهائلة مجرد مظاهرة كبرى للتخويف وإثارة الرعب فى نفوس الأعداء، ويرى بعض القادة أنها حركة بارعة، سوف نجنى من ورائها الكثير دون أن تخسر شيئًا . . وأخذوا يثنون على براعة الساسة، لكنى لست مرتاحًا لهذه الظاهرة الخطيرة، يجب أن نستعد لكل الاحتمالات : الطيبة والسيئة على حد سواء، قال أحدأصدقائى المهندسين :

- «إنها مجرد نزهة قصيرة» .

قلت فى حدة :

- «الحرب هى الحرب . . وعدونا خبيث . . » .

- «انظر حولك . . ماذا ترى؟؟ نحن نسد عين الشمس . . » .

- «المسألة ليست مجرد حشود . . » .

- «ماذا تكون يا عبد القادر؟؟» .

- «فكر وتنظيم . . ونحن لا نعرف ما يدور خلف الستار . . » .

ولم يكن تعليقًا مريحًا بالنسبة لمن معى، كانوا محلقين فى أجواء عالية جميلة، يحملون بالنصر الكبير، وكنت أحلم مثلهم لكن بحساب وترو وقلق، وعدت أفتش عن الحقيقة بينى وبين نفسى، لماذا هذا القلق يبدو أن الشكوك قدرى، كنت دائمًا أخاف من المستقبل، وكنت أقول لنفسى معاتبًا: إن ذلك ضعف إيمان . . المؤمن الحق لا يخاف، ويترك أمر الغد لله أن يقوم بواجبه، لكنه الغد كان يأتينى بما يؤلمنى فى حياتى، من هنا تعلمت الحرص، وتناولت بعض الزملاء آرائى فى شىء من الغضب، حتى إننى سمعت أحدهم يقول دون أن يرانى:

- «لولا أن عبد القادر رجل طبيب لقلت إنه طابور خامس» .

حتى فى هذه الأوقات العصبية، ونحن نقف متشابكى الأيدى فى مواجهة الموت، تنطلق الشعارات الرخيصة، والاتهامات البذيئة، لكن قداسة المعركة سوف تطهر القلوب والعقول من أدرانها، إذن لا بد أن أركب الموجة، وأقول مثلما يقولون، وأفعل

مثلما يفعلون، وبذلك أصبح وطنيًا مخلصًا محبًا لشعبه وأرضه وعرضه وتراثه . .

كان من السهل على أن أنام فى أى وقت، فقد تعودت حياة التقشف والحرمان والكفاف، إنها نعمة كبرى من الله، لأنى كنت أرى المرفهين من الضباط يقاسون الأمرين؟ بسبب عدم القدرة على النوم فى هذا الجو الحار الهائج المائج، ويصيبهم الغيثان من الماء العكر، والطعام المغبر البارد، وعدم حصولهم على القهوة أو الشاى، وبعضهم يتحدث عن زوجه أو أولاده فى وله عجيب، ويكاد يبكى من شدة اللهفة عليهم، بعض الخلعاء منهم يتحدث عن الليالى الحمراء الجميلة وحفلات الرقص والشرب فى هيام، ويتمنى أن تنتهى المعركة بسرعة، حتى يستأنف حياة اللهو والطرب والمتعة . .

حينما دعوتهم للصلاة لأول مرة اعتذروا لقلة الماء، وقال أحدهم فى سخرية:

- «نحن لا نجد ما نشربه، فكيف نتوضأ؟؟».

- «تيمموا . .».

أدار بعضهم رؤوسهم فى دهشة، وتساءلوا عن معنى التميم:

فشرحت لهم الأمر، وانضم إلىّ عدد من خريجى الأزهر

المجندين وجلست بعد الصلاة أحدثهم عن الاستعداد الأمثل للقاء الله، وأصول التوبة، ومعنى الجهاد الصحيح، وكيف أن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وأن من يحرص على الموت توهب له الحياة، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأخذت أضرب لهم المثل عن صحابة رسول الله، وكيف كانوا يتسابقون إلى نيل الشهادة، ويسارعون إلى اللقاء الحق.. وأفقت من حماستى ونظرت إلى وجوههم السمراء كانت الدموع تترقرق فى أعينهم.. وكنا نستعين بالترانسستور على سماع الأخبار، وكانت مبالغات المذيعين تملأ نفوسنا بالأمل، وتجعل النصر قريبًا..

●●●

فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ جرت الأحداث بسرعة مخيفة، السماء تزدحم بالطائرات، والحمم تتساقط هنا وهناك، والحيرة تستبد بالنفوس، إن العدو هو الذى يضرب، وإذاعته تزعم أن سلاح الطيران فى بلدنا قد تم القضاء عليه، وأصبح عاجزًا عن فعل أى شىء لم نصدق هذه المزاعم، إنها حرب أعصاب لا أكثر ولا أقل، لكننا لا نرى طائراتنا.. اختفت النسور التى نعرفها، وبدت فى الأفق طائرات غريبة.. تمرح وتفعل بنا ما تشاء.. قلت فى دهشة:

- «يا للمصيبة!! نحن بلا أدنى حماية جوية..».

سمعت صوتًا من خلفى يقول :

- «لا تنشر بيننا سموم الهزيمة . . » .

- «انظر معى إلى السماء . . » .

- «لن أنظر يا عبد القادر . . وكف عن هذا الهراء وإلا قدمتك لمحاكمة عسكرية . . » .

قضينا ساعات من التوتر والاضطراب ، لم نكن نعرف أين نوجه نيراننا ، أخبار إذاعتنا تتحدث عن إسقاط طائرات عديدة للعدو ، وتؤكد أن قواتنا تتقدم للأمام ، وإذاعة العدو تبث برامجها كالمعتاد ، وتلقى بيانات مقتضبة كلها قاتلة . . إننى أعيش فى كابوس رهيب . . إن طائرات العدو تحصد فينا ، وقواته تقترب منا ، وتقوم بعمليات التفاف جريئة ، وتحاول تجنب الصدام معنا ، لكنها تكسب أرضًا . . لقد أصبحت خلفنا وأمامنا . .

جاء الضابط القائد ، وقال :

- «صدرت الأوامر بالانسحاب» .

هتفت :

- «لماذا؟؟ نحن لم نحارب بعد» .

- «تلك هى الأوامر . . » .

- «وإلى أين نذهب؟؟؟»

- «خط الدفاع الثانى يا باشمهندس.. نفذ الأوامر..».

أخذنا نتراجع فى فوضى، العدو يصب النار من فوقنا، ويوجهها إلينا أنَّى اتجهنا.. نحن ننسحب أغرب انسحاب سمعت عنه، بعضنا ينسحب للأمام والآخر للخلف.. الجرحى يئنون.. والموتى يرقدون فى سكون.. والأحياء كالسكارى..

- «يا ألطاف الله.. الرحمة..».

وجاء الليل، والأشباح التعسة تتحرك لا تعرف شرقًا من غرب، ولا شمالاً من جنوب، وعربات الجيش تتراجع.. وبعض الجنود يتشبث بمؤخرات السيارات المكتظة بالمنسحبين.. الكل يفكر فى النجاة.. أكداس السلاسل متناثرة هنا وهناك.. الرمال تمتد بلا حدود.. ورمز المنسحبين تترامى فى إعياء وأسى.. وصوت يصرخ «الموت للخونة..».. وآخر يقول: «خدعونا».

توقفت للحظة.. لا معنى للحياة بعد اليوم.. قرأت فى كتب الفقه أن الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر، سأحمل سلاحى وأظل أجاهد حتى الموت.. هتف بالمنسحبين:

- «قفوا واثبتوا..».

سمعت ضابطًا يقول:

- «نفذ الأوامر يا عسكرى وإلا . . ».

إنها الأوامر دائمًا . .

كنت أبكى وأنا أنصت إلى محطات الإذاعة فى أنحاء العالم، إن حجم المأساة يبدو كبيرًا وجثث الضحايا كما أرى لا تعد ولا تحصى، من المسئول؟؟ صرخت لنفسى: ليس هذا وقت السؤال، لا يصح أن أفكر إلا فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . هأنذا أعود للتفكير فى المقدمات والنتائج . . فوجئت أمامى بصديق قديم . . كان معى فى كلية الهندسة . . عرفته برغم الغبار والكدمات التى تغطى وجهه . . هتفت فى فرح لا يعرفه إلا الضائعون الحائرون:

- «صلاح الدين عبد الله . . ».

- «مَنْ؟ عبد القادر؟؟».

تعانقنا . . كانت دموعنا تنسكب على الرغم منا، قال صلاح:

- «أضاعونا . . ».

- «هذا أمر الله . . لم يزل فى العمر بقية . . لا جدوى من الحسرات . . ».

- «وقامروا بحياة الخلق . . ».

- «لنفكر فيما نحن فيه . . ».

- «هذه هى البداية الصحيحة للتفكير . . إن الذين داسوا كرامة

الإنسان، لن يتحقق على أيديهم المخضبة بدم الأبرياء أى نصر . . عندما تشبثت بسيارة القائد ركلنى بعنف . . فارتميت على الرمال محطمًا . . إن الكدمات التى فى وجهى ورأسى ليست من صنع العدو . . إن رفاقى هم المعتدون . . الكل يفر بجلده . . هذا يوم الحشر . . لأن كل واحد منهم يقول: نفسى . . نفسى . . ».

أطبق الليل، وجلست مع صلاح وبضعة نفر، كان الضياع والغد المجهول، ومرارة الأحزان تبعث الأسى فى نفوسنا الجريحة . . هيهات أنسى هذه اللحظات . . حسبت فى الماضى أن عذابات السجن لن تنسى . . لكنى أشهد بعينى رأسى اليوم مأساة من نوع آخر . . إنها جماع المآسى كلها . . وماذا سأقول لبدرية؟ وما هى قصص البطولة التى سأرويها لهدى وأحمد . . ووسط هذا الطوفان الهادر من الأحزان، وجدتنى أهتف بدون مناسبة:

- «لسوف أطلقك يا «صافى» . . يا أكذوبة الزمن التافه . . إذا كتبت لى الحياة، فسوف أحاول التطهر من لياليك العفنة . . بعد أن أقطع لسان الأفعى . . وأثمل عينيها الميتتين . . ».

- «بماذا تهرف؟؟ أتهذى؟؟ نم قليلاً . . ».

- «وهل ينام الموتى يا صلاح؟؟».

لم أكن مقتنعًا بالعودة إلى شاطئ القناة هكذا دون أن أفعل شيئًا، ووافقنى صلاح على رأيى، وقلة قليلة من الزمرة التى معنا،

بينما واصل الباقون انسحابهم إلى الشرق، وكان من حسن حظنا أننا وصلنا إلى منطقة تتمركز فيها قوات مدرعة من قواتنا ظلت تحارب ببسالة منقطعة النظير لقد كانت مجموعة العمليات الشمالية الإسرائيلية مكونة من لواءين مدرعين، ضد لواء مدرع مصرى واحد، عهد إليه بصد الاختراق الإسرائيلى عند الكيلو ١٦١، وقد قطع هذا اللواء مئات الكيلو مترات حتى وصل إلى منطقة جنوب «الحسنة». . كان الرجال مجهدين. . والآلات المتحركة أيضًا مجهدة، والجو حار خانق، والماء قليل، ومن يعش ساعتين داخل دبابة يمكنه أن يشعر بهذه الحرارة الحارقة التى تقضى على كل مقومات ومعنويات الإنسان. .

واشتبكنا فى عمليات ليلية ضد الكمائن الإسرائيلية المدرعة فى «بير لحفن»، لكن الالتحام الفعلى لم يقع إلا حوالى الرابعة بعد الظهر. . مائة وستون دبابة إسرائيلية فى مقابل مائة دبابة مصرية. . حاول العدو الاقتحام لكن نيراننا وصمودنا كان أكبر مما يتصور. . إنهم يتراجعون بعيدًا عن نطاق النيران، ويتجنبون المواجهة المباشرة. . ثم حاولوا القيام بحركة التفاف، فكان نصيبها التدمير والفشل. . واستخدم العدو الدبابات الفرنسية الخفيفة السريعة الحركة دون جدوى. . كانت المعركة ضارية. . والطيران يصب علينا جل نيرانه. . والليل يشتعل بالموت الأحمر. . ووصلنا إلى «الجفجافة». . ونحن نحاور ونداور. . ومما أثلج صدورنا ظهور

بعض الطائرات المصرية التى ساهمت فى رفع روحنا المعنوية، فقمنا بعمليات اختراق ناجحة، ودمرنا العديد من دبابات العدو الذى فقد أعدادًا كبيرة من جنوده . .

فى أتون المعركة لم أكن أعرف معنى للخوف . . يصبح الموت خاطرًا عاديًا كالحياة . . الجهاد الحقيقى أسمى من الموت والحياة . . لم يكن هناك مجال أو وقت لاستكمال المنشآت الهندسية . . ولهذا تحولت إلى محارب . . وعلى الرغم من معلوماتى المحدودة فى الميكانيكا إلا أننى كنت أحاول علاج بعض الدبابات المتعطلة مع بعض الإخوة، وأحمل العتاد من مكان إلى آخر، وأجلس خلف المدفع إذا وقع جندى جريحًا . . لم يعد لقرار الانسحاب معنى أو قيمة . . لقد تم حشدنا فى سيناء خلال ثلاثة وعشرين يومًا، فكيف ننسحب فى عشر ساعات، لا بد أن نحارب حتى الموت . . الأمر لم يعد أمر قيادة فالقيادة تعيش بعيدًا عن معركتنا الجزئية هذه . . ومن العسير . . بل من الخطر أن نتوقف . . أصبح استمرار المعركة ضرورة للنجاة إذا رزقنا الله بالنجاة . . إن جرعات الماء القليلة تروى الظمأ . . ولقيمات صغيرة تملأ المعدة . . سبحان الله . . إنى أشعر أن بداخلى رصيدًا هائلاً من الزاد . . أى زاد، ومن أين يأتى؟؟ لا أدرى . .

قال صلاح الدين:

- «إن الإمدادات تتوالى على العدو . . وأسمعهم يزعمون أننا محاصرون ، وأن قواتهم قد اقتربت من شاطئ القناة . . وأننا لابد للتسليم حفاظًا على حياتنا . . » .

- «لا تصدق كل ما تقوله ميكروفوناتهم . . » .

ومن آن لآخر يسقط جريح ، كانت الدماء الطاهرة تنسكب على الرمال الصفراء ، إنى أراهم يموتون ويكتمون الأنين ، يموتون فى كبرياء . . وبرغم الشحوب الذى يكسو وجوه المحتضرين إلا أنى أرى ابتسامة مشعة مقدسة ترف على الشفاة الهامسة . . ترى ماذا يقولون؟؟ وبماذا يحملون؟؟

رأيت صلاح يضع الضمادة على عين مصاب مغشى عليه . . كانت يده ترتجف ، والأسى يبدو سطوراً ناطقة على وجهه ، سمعته يتمتم :

- «لِمَ هذا العذاب كله؟؟» .

- «ليس هذا وقت السؤال . . » .

- «إلىّ بالماء يا عبد القادر . . إن فمه أشد جفافًا من الرمال . . » .

احتضنه على صدره ، وأخذ يصب الماء بحذر فى فمه ، كان الجريح يلعق شفتيه فى وهن ، ثم فتح عينه الباقية وهمس بصوت متحشرج :

- «أشكركم . . دعونى أرقد جانبًا . . وعودوا لعملكم . . » .

كان وراءنا الكثير من العمل، لا وقت للنوم، إن المعركة تحتدم منذ أكثر من ستة وثلاثين ساعة، أحيانًا تغفو عينى، لكن يدى تظل متشنجة على المدفع، وعيناى تشقان الظلام الغامض . . أسأل قلبى أين أتجه بالرمى، فتتحرك بوصلة سحرية فى داخلى . . وترشدنى إلى الجهة الصحيحة . . اختلط عالم الغيب وعالم الشهادة، والروح تدفق فى الجسد دماء نورانية قوية . . حتى الدبابات التى لها عدد محدود من الكيلو مترات لا تتعداها فى المسمير، قد خرقت القاعدة، وما زالت تعمل بكفاءة وتسير . . القواعد العلمية دقيقة . . لكن هناك إرادة عليا، لها الكلمة الأخيرة فى الحياة والموت، وفى الحركة والسكون . . ثلاثة أيام ستظل محفورة فى ذاكرتى إلى الأبد . .

ففى اليوم السابع من يوليو . . أوشكت الذخيرة على النفاذ . . وكنا فى انتظار المدد، ووصل المدد وعدد من طائراتنا يحمى رؤوسنا وتحركاتنا، ، وتراجعنا على أمل أن نعود بعد فترة استجمام . . لم أكن أعلم أن تراجعنا سيكون نهائيًا . . فقد توقف إطلاق النار . . وخسرنا المعركة الكبرى على أرض سيناء برغم نجاح لوائنا المدرع . . .

كنت أرتمى شبه نائم فى «العبّارة» التى نقلتنا على دفعات من

الشاطئ الشرقى للقناة إلى الشاطئ الغربى . . كانت الأحزان العميقة تعرف لحنها الدامع فى أرجاء نفسى . . ذهب صلاح إلى لقاء ربه . . ومعه خلق كثيرون . . لا يعرف الشعب أسماءهم ولن يعرفهم . . مجرد أرقام . . أو حروف فى سجلات قديمة . . ترمز إليها بباقة من الزهور على قبر الجندى المجهول . .

غمغمت بينى وبين نفسى :

- «المجهولون هم صنّاع التاريخ الحقيقيون . . لكن المجد والهتاف للزعماء . . » .

وسقطت دمعات قليلة ، وهتفت بصوت يشرخه البكاء والألم :

- «يا لأيامى التعسة التى قضيتها بين آلام السجون ، وعذاب الهزيمة ! ! » .

ملت على رفيق لا أعرفه وتساءلت :

- «من المسئول؟؟» .

هز رأسه فى اكتئاب ، وقال :

- «نحن . . » .

●●●



كانت الهزيمة شديدة المرارة، وانطلقت الألسن التى خدعها الزيف، أو عقلها الخوف تتحدث بصراحة جارحة، وكلما تقابل اثنان تحدثا عن آخر نكتة، وأصبحت النكتة فى الشارع المصرى أصدق تعبيرًا من مقالات الصحف، وخطب الزعماء، وتصريحات القادة، كان ما جرى جرحًا غائرًا فى قلب مصر، وارتبكت أجهزة الأمن.. ونشطت.. قيل إن المشير انتحر.. وقيل قتل.. وحوكم بعض الناس لمسئوليتهم المباشرة عن الهزيمة كما زعموا، وتحدث الناس عن خداع روسيا، وتواطؤ أمريكا، وسذاجة المسئولين عندنا، وتغنت إسرائيل بنصرها العجيب، وصفق لها العالم.. أما شركة الحاج على فقد اتسع نشاطهم، وتضخم جهازها، ونمت أرباحها، وأصبح لها مشاريع كبيرة فى المنشآت العسكرية، وعدت إلى عملى فى الشركة عقب تسريح المهندسين والأطباء المكلفين، ولقد تحسنت حالة «بدرية» بدرجة معقولة، وكانت فترة تكليفى القصيرة كفيلة بأن تجعلها تفيق إلى

نفسها، وتتحمل مسئولية بيتها بوعى وشجاعة، حتى لأن الأحداث تصقلها وتشحذ همتها . .

كانت «صافى» مقطبة الجبين، تغرق فى الصمت والشرود، وعلمت من الحاج على أن نخبة من أصدقائها قد سرحوا من الجيش، أو قدموا لمحاكمات عسكرية، وأن جهاز المخابرات نفسه قد أعيد تكوينه وتقييمه، لكنها ظلت ممسكة ببعض الخيوط أو الصلات الضرورية لنشاطها التجارى . .

وفترت علاقتى بها بعض الشىء، وقلت الليالى التى أقضيها معها فى منزلها وإن لم تنقطع، وكنت أشعر أنها تعانى من خيبة الأمل، إن ثقتها بالنصر لم يكن لها حدود، لكنها فوجئت بما لم تتوقعه، كان حجم المأساة كبيراً، قالت لى ذات يوم :

- «يبدو أنك كنت على حق . . » .

- «كان كل شىء فى طى الغيب يا صافى . . » .

- «لقد هزمنا الغرور . . » .

كنت أعلم أن «الغرور» وحده ليس تبريراً كافيًا لما حدث من نكبات، ومع ذلك فقد كنت عازفًا عن الجدال فى أمر انتهى، غير أنها التفتت نحوى، وقالت :

- «ما رأيك يا عبد القادر؟؟» .

- «قد لا يعجبك رأى».

- «أصبحت أكثر ميلاً للصدق والصراحة مهما كانت مُرة..».

قلت فى شرود:

- «لا مسئولية مع ضياع الحرية..».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «لم يكن لنا- كشعب- أى رأى، وانعدمت الرقابة الشعبية تمامًا. القيادة كانت تفعل ما يحلو لها.. ونتيجة لذلك استشرى الفساد والفوضى والغرور.. إن أهل الثقة فرّطوا فى الأمانة؟ لجهلهم أو لأنانيتهم.. وهكذا سقط النظام..».

هتفت فى احتجاج:

- «النظام لم يسقط، وهذا أعظم شىء بقى لنا..».

قلت فى إصرار وعناد:

- «بل سقط، ماذا بقى يا عزيزتى؟؟».

- «لقد وعينا الدرس، ونستعد لجولة ثانية..».

- «أبالطريقة نفسها، والأسلوب نفسه؟؟».

- «لا، إن كل شىء يتغير..».

ابتسمت فى مرارة، وقلت:

- «المعتقلون . . وسجناء الرأى ما زالوا خلف الأسوار . . » .

- «هذا كذب . . » .

- «بل عين الحقيقة . . وإذا كان بإمكانك أن تتجولى فى السجون فسترين المأساة القديمة تنطق بالعار» .

وأبدت صافى دهشتها لما تسمع ، وأكدت أنه من الضرورى أن يبدأ الجميع صفحة جديدة ، وأن نستعد لتخليص سيناء المحتلة وفلسطين من قبضة الصهيونية ، حتى تعود إلينا كرامتنا وشرفنا . .

قلت وأنا أدق على المنضدة بقبضتى :

- «إن دولة الحديد والنار يجب أن تصبح دولة المبادئ الفاضلة . . هذا هو المنطق . . » .

رأيتها مطرقة لا تتكلم ، فاستطردت :

- «ويجب أن يكون اعتمادنا على الله ، وعلى أنفسنا . . لأن تكديس السلاح وحده ثبت فشله ، والاتكال على روسيا مكنها من مقاليدنا فى الوقت الذى ضاع فيه منا النصر . . » .

قالت وهى تفرك يديها فى عصبية :

- «الأمور معقدة جداً ، وليست على هذا النحو من البساطة . . » .

هززت كتفى فى استغراب، وقلت :

- «ليس هناك تعقيد سوى أسلوبنا الخاطئ الذى يجب أن يتغير . . » .

قالت وهى تنظر إلى بعيد :

- «لقد عشنا السنوات الطويلة فى وهمٍ؟؟» .

هممت بالرحيل، لكنها تشبثت بى قائلة :

- «لا تتركنى الليلة» .

إن أمر صافى كان يحيرنى دائمًا، إنها فنانة من نوع فريد، فهى تهتم بأمور السياسة لدرجة مبالغ فيها، وتقرأ الكثير من الكتب، وتحرص على قراءة الصحف، والاستماع إلى الخطب والبيانات الرسمية، ولها نشاط نقابى واسع فى نقابة السينمائيين، وتتصدر نشاطاتها السياسة والاجتماعية، مما يجعلها أحيانًا تهمل عملها الفنى إهمالاً تامًا، بالإضافة إلى شركتها ذات الإنجازات الكبيرة، ثم إنها ترتبط بعلاقات وطيدة مع رجالات السلطة فى أكثر من موقع . . كنت أريد أن أعرف السر الكامن وراء ذلك، على الرغم من شكى الكبير فى تصريحها لى بأمور كهذه، لكنى انتهزت الفرصة المناسبة، وقلت لها :

- «أنا زوجك، ومن الواجب أن أعرفك أكثر . . » .

ضحكت فى مرح، وقالت :

- «أعرف ما تهدف إليه».

- «هذا حقى، وحتى لا أفاجأ بشىء ما فى يوم من الأيام..».

أمسكت بيدى فى لهفة، وقالت:

- «هل تتصور أننى كنت على وشك أن أعتقل مثلك وأقدم للمحاكمة؟؟».

هزتنى كلماتها، ودهشت لما أسمع، وهتفت:

- «غير معقول..».

همست قائلة:

- «إن ما أقوله يجب ألا يعرفه أحد، وإلا ضعنا تمامًا..».

- «فلأسحب سؤالى ولتحفظى لنفسك بما ترينه من خصوصياتك..».

لم تكترث لقولى، وأردفت قائلة:

- «إن الجهاز كله كان على وشك الانهيار..».

- «أى جهاز يا صافى؟؟».

- «إنه تنظيم غير الحزب الذى يعرفه الناس.. واسمح لى أن أقول إننى أحد أركانه.. نحن القوة الفاعلة والمؤثرة.. وأظنك عرفت الآن الكثير عن أسرارنا..».

ثم قالت وهى تثب من فوق مقعدها:

- «دعنا نمرح . .» .

واختطف «الدف» وأخذت تدق عليه، وهى تغنى أغنيتها المفضلة :

اشرب شراب . .

●●●

دهشت بدرية عندما رأتنى أعد العدة لاستخراج جواز سفر لها ولأولادها، فأوصيتها بالكتمان الشديد حتى أحصل لها ولى على تأشيرة خروج، وأخبرتها بأن الحكومة قد فتحت أبواب السفر للممنوعين، أو لكثير منهم، وفى خلال فترة وجيزة استطعت أن أحصل من صديقى بدبى على سمة دخول لى ولأسرتى، وتجديد عقد العمل السابق . .

كنت حريصًا أشد الحرص على تلافى أى خطأ يعوق هجرتنا إلى بعيد، كما كنت مستعدًا أن أدفع أى ثمن يطلب منى . . لقد طفح الكيل، وتوترت الأعصاب، ولم أعد قادرًا على معايشة هذه الحياة الكئيبة المضطربة، أصبحت أشعر أننى فى حاجة ماسة إلى التخفيف من شتى الأثقال التى تعوق حريتى، وتؤرق نومى، وتعصف بطمأنينتى . . وكانت بدرية ترقب تحركاتى بسعادة ممتزجة بالدهشة . . ورأيتها تداعب أطفالها فى سعادة وتغنى لهم . . وتضحك . . وذهبت عنها وساوسها ومتاعبها، وأقبلت على

الطعام فى شهية لم آلفها فيها منذ زمن، وحاولت أن أكون حريصًا على الوفاء بالتزاماتى وعملى، وإعطاء صافى أكثر من حقوقها فى الترفيه والنزهة والمرح، حتى إنها قالت لى قبل هجرتى بيومين :

- «هل أنت سعيد معى يا عبد القادر؟؟» .

قلت وأنا أضمها إلى صدرى فى قوة :

- «وأية سعادة يا حبيبتى؟؟» .

همست فى ولهٍ :

- «لقد تصورت فى بعض الأحيان أن حبنا سيفتر . . » .

علقت فى مرح :

- «هكذا يقولون عن حب الفنانات . . » .

ضربتنى على صدرى فى دلال، وقالت :

- «أنا إنسانة أولاً . . والفن لم ولن يفسد قلبى . . » .

- «الفن يضيق بالتكرار . . وأنا أصبحت نموذجًا قديمًا . . أليس كذلك؟؟» .

قالت وهى ترمقنى بنظرات عاشقة :

- «إنك متجدد دائمًا . . كل يوم أكتشف فيك جانبًا من جوانب الإمتاع والثراء . . » .

- «لكن الحكومة تزعم أنى رجعى . . جامد . . » .

تمتمت وهى تبتسم :

- «ليتهم مثلك . . » .

- «هذه شهادة أعتز بها . . إنها تصدر عن جهة رسمية . . » .

وضحكت . . وشاركتنى الضحك . .

وفى اليوم التالى طلبت عطلة طارئة لمدة ثلاثة أيام . . وأراد الله أن يمضى كل شىء على ما يرام، لم أجد صعوبة تذكر فى إنهاء الإجراءات، لكنى لمن أطمئن تمامًا إلا عندما حلقت بنا الطائرة فى الأجواء الزاهية الجميلة . . نظرت من النافذة . . كانت المدينة من تحتنا ترقد فى صبر ووقار . . بعض الأعمدة الدخانية تتصاعد فى كسل . . والنيل يطوق المدينة من الناحية الغربية، وكأنه ذراع حانية، وجبل المطقم يربض كعملاق خرافى . . قلت وأنا أتنهد فى ارتياح :

- «لقد نجونا» .

لم تعلق بدرية، وظلت مطرقة، نظرت إلى وجهها . . يا إلهى إنها تبكى، وجسدها ينتفض . .

- «أهى دموع الفرح؟؟» .

- «أجل ياعبد القادر . . » .

- «لكنك تبكين بحرقة» .

رفعت إلىّ عينين محتقنتين تغرقهما الدموع، وقالت :

- «ولماذا لا أبكى؟؟ إن أصعب الأمور بالنسبة للمرأة أن ترى أخرى تشاركها فى زوجها . . ».

كان لهذه الكلمات وقع الصاعقة على نفسى، وصرخت:

- «أكنت تعرفين؟؟».

-«نعم . . عرفت كل شىء . . ».

- «من أخبرك . . ؟؟».

- «عم جابر أول من ألقى فى وجهى بالخبر المؤلم . . ».

لففت ذراعى حول كتفها، وضممتها إلىّ فى حب حقيقى، وقلت:

- «كانت ظروف . . يا حبيبتى الغالية . . لشد ما تعذبت . . ».

- «لا تقل شيئًا . . ».

- «يجب أن أتكلم . . لقد تركت لها ورقة «الطلاق» . . مع عم جابر سائق الحاج على . . وسوف تتسلمها غدًا . ». .

هزت رأسها فى هدوء، وقد أشرق وجهها برغم الدموع تمتمت:

- «مسكينة . . كان الله معها . . ».

- «إن مثلها تستطيع أن تجد البدائل . . لقد انتهت الرواية . . ».

كانت دبى هادئة وادعة، تقبع على الخليج فى نظافة وتواضع،

تفتّح قلبى لتلك المدينة الصغيرة، خيل إلىّ أنها تفتح ذراعيها لتضمنى إلى قلبها المحب.. إنى أشعر بتفاؤل كبير.. وهأنذا أفتح صفحة جديدة بيضاء فى سجل حياتى..

واستبقلنى فايز وأخذنى بسيارته إلى مسكنى، وبعد يومين كنت على رأس عملى..

كان لا بد أن أحاول نسيان ما مضى، لكن الحاج على بعث إلىّ برسالة مع أحد المسافرين يسألنى فيها عن بعض الأمور المعلقة، ويلح فى الرد بسرعة، وكتب فى رسالته أن «صافى» كادت تجن عندما جاءها الخبر.. وهددت وتوعدت، وأقسمت أن تثأر لكرامتها منى..

آه.. لأول مرة منذ سنين أنام قرير العين دون سهاد..

ترى، هل ذهبت ليالى السهاد إلى غير رجعة؟؟

نجيب الكيلانى

دبى- دولة الإمارات العربية المتحدة

فى ٢٤ ربيع الأول ١٤٠٥هـ

١٧ ديسمبر ١٩٨٤م

●●●